مناهج ومنهاجية دراسة العلاقات الدولية فيما بعدالغرب:إسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية نموذجا

إعـــداد

أميرة علي الدين أبـــو سمرة

مدرس العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة

مستخلص:

إذا كـان البعض في حقل العلاقات الدولية -بحكم تطورات معرفية وأنطولوجية، وفـي اللب منها تطورات منهاجية- قد أضحى يلح علـى أهمية إشراك غير الغربيين فـي التنظير فـــي الحقل، فإن سؤالا يتولد حول علاقة الإسهامات غير الغربية بالمناهج والمنهاجيات القائمة فـي هذا الحقل. إلى أي مدى تجد هذه الإسهامات فـي المناهج الغربيـة والمنهاجية الغربية – خاصـة ما بعد الوضعية- ما يلبي احتياجاتها للمشاركة فـي العلم، وإلى أي مـدى تقدم الإسهامات غير الغربية جديدا ذا خصوصية على صعيد المناهج والمنهاجيات تتجاوز بـه ما قدمه الغرب؟ ومـن ثم ما الإضافة التـي تحملها علـى صعيد تعريف "العلم" وعلـى صعيد عملية إنتاجـــه فـي حقل تنافست فيه التعريفات لمعنى العلم والعلمية عبر مراحـل تطوره المنهجـــي والمنهاجي؟ تتخذ الورقـة مـن إسهامات نظرية صينية نموذجا بحثا عن إجابات على هذه الأسئلة.

Abstract:

Epistemological, ontological as well as methodological revisions in the field of IR have stimulated calls stressing on the importance of non-Western theoretical contributions to the field debates. This development in the field of IR raises several questions about the relationship between non-Western contributions and the methods and methodologies prevalent in the field: To what extent do Western -especially post-positivist- research methods and methodologies satisfy the needs of non-Western theoretical contributions in the field? To what extent do non-Western theoretical contributions in the field provide methods and methodologies of their own that reflect non-Western particularity and move, thereby, beyond methods and methodologies of the West. Hence, what is the value added of non-Western theoretical contributions in as far as the production of science is concerned? This paper focuses on the Chinese theoretical contributions as an example of non-Western theoretical contributions in search of possible answers to these questions.

شهد حقل العلاقات الدولية عبر مراحل تطوره تحولات جوهرية في منهاجيته على نحو قاد الحقل عبر عقود عمره التي تصل إلى العشرة تقريبا إلى حالة من التعددية المنهجية والنظرية وكذلك المنهاجية، فقد انتهى الحقل فعليا اليوم إلى حالة من التعايش - أو فلنقل من التواجد المشترك- بين المنهاجية الوضعية، وبين المنهاجية ما بعد الوضعية[١]. يتحفظ الكثيرون على حالة السيولة الكبيرة في المناهج والمنهاجية التي قادت إليها مراجعات ما بعد الوضعية، ويفتقد البعض علم العلاقات الدولية صاحب المنهاجية "العلمية المنضبطة" التي طالما دافعت عنها المدارس الوضعية في الحقل، حيث يوجد هناك سبيل وحيد للوصول إلى "العلم"؛ وحيث العلم هو منتج لعملية من الملاحظة الدقيقة للواقع والتي يتم اختبار دقتها بعرضها على هذا الواقع ليثبت صحتها أو ينفيها، وحيث إن المعرفة محايدة، تنفصل انفصالا كاملا عن الباحث وقيمه[٢].

في المقابل يرضى الكثيرون عن الحالة التي وصل إليها الحقل تمام الرضا،حيث يجدون فيها أخيرا سعة وتنوعا؛ أهل بهما حقل العلاقات الدولية، حيث يعود الحقل أخيرا للوعي بأهمية التفكير في الفلسفة التي قام عليها كعلم، ولإدراك أهمية الانفتاح على مناهج من حقول أخرى إنسانية واجتماعية تحقق له عمقا في استكشاف الظاهرة الدولية طالما غاب في ظل هيمنة المناهج الوضعية السلوكية الإمبريقية التي جعلت من البعد المادي للظاهرة الدولية فحسب محورا لها. [٣] وهي سعة عبر عنها البعض بقوله "اليوم يغطي الحقل طيفا عريضا من القضايا من التدهور البيئي إلى كيفية الحيلولة دون نشوب الحرب العالمية الثالثة، من نظريات تسعى إلى تفسير أفضل للواقع إلى نظريات تدفع بأن الواقع ما هو إلا منتج لهياكل اجتماعية (علاقات قوى اجتماعية).

---

[1] Stephen McGlinchey, Rosie Walters and Dana Gold, "Getting Started with International Relations Theory", in: Stephen McGlinchey, Rosie Walters and Christian Scheinpflug (eds.), International Relations Theory, (Bristol: E-International Relations Publishing, 2017), pp. 1-14

[2] - Yale Ferguson and Richard Mansbach, Reflections on the "Third Debate", The "Third Debate" 25 Years Later, Symposium, International Studies Association, 2014, link: https://www.isanet.org/Publications/ISQ/Posts/ID/304/25-Years-after-The-Third-Debate-Two-pianissimo-bravos-for-IR-Theory

-Christopher Lament, Research Methods in International Relations, (Los Angeles, New Delhi: Sage, 2015)

[3] Cora Lacatus, Daniel Schade, and Yuan Yao, "Quo vadis IR: Method, Methodology and Innovation", Millennium: Journal of International Studies, 43 (3), 2015, link: http://eprints.lse.ac.uk/61903/1/__lse.ac.uk_storage_LIBRARY_Secondary_libfile_shared_repository_Content_Lacatus,%20C_Quo%20vadis_Lacatus_Quo%20vadis_2015.pdf

هذا التنوع وهذا الثراء يستحقان التحية والتقدير". [١] وأيا ما كانت درجة اتفاقنا أو اختلافنا مع هذا التصور، فالثابت هو أن التعددية والديناميكية أصبح من أبرز سمات المناهج والمنهاجيات العلمية في الحقل، فلم تكن لأي من هذه الأخيرة قداسة أو حصانة تحول دون تطويرها ومراجعتها ونقدها، مهما ادعى أنصارها غير ذلك[٢]. وهي خلاصة هامة تقودنا تدريجيا إلى إشكالية هذه الدراسة.

يقع في صميم المساعي ما بعد الوضعية لتصحيح أوضاع غير عادلة أفرزتها توازنات القوة الاجتماعية المختلة مسعى تصحيح حال علم العلاقات الدولية نفسه. تفترض الكثير من الأدبيات ما بعد الوضعية أن حالة من عدم التوازن في إنتاج العلم قادت إلى حالة من الخلل في فهمنا للواقع. وإذا كان في تجديد الاهتمام بالقيم والتاريخ والفكر سبيلا لتصحيح هذه الأوضاع المختلة، فإن اهتماما بغير الغربي لا ينفصل عن أي منهم، بحيث إن تصحيحا لأوضاع مختلة في علم العلاقات الدولية لا يتحقق إلا بفتح الطريق أمام استيعاب مصالح غير الغربي وأولوياته، قضاياه وفكره، ثقافته وتاريخه وغيرها من المسائل التي تم تهميشها في حقبة تنظيرية وضعية تمركزت حول الغرب، فجعلت من تاريخ الغرب وواقعه وأولوياته وقضاياه ومصالحه محورا للعلم وللتنظير تحت مسمى الموضوعية والعلمية[٣].

تتخذ الورقة من إسهامات نظرية صينية نموذجا بحثا عن إسهامات غير غربية تمردت على السائد والمهيمن في الحقل، أو إسهامات "ما بعد غربية" كما سيلي شرحه في الجزء الأول من الورقة. ليست النظرية الصينية في العلاقات الدولية بالإسهام غير الغربي الوحيد في الحقل. هناك إسهامات برازيلية وهندية وجنوب إفريقية، يرمز إليها البعض أحيانا بالمدارس القومية national schools في العلاقات الدولية -ويضيف إليها حتى مدارس غربية كالمدرسة الألمانية

---

[1] Philip Windsor (foreward), in :Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian, The Study of International Relations: The State of the Art, (Palgrave Macmillan in association with Millenium Journal of International Studies, 1989, ix, x

[٢] تحت الإعداد للنشر:

Amira Abou Samra, The Debates of Methodology and Methods: Reflections on the Development of the Study of International Relations, Review of Economics and Political Science, Vol. 6, ٢٠٢١

[٣] نادية محمود مصطفى، مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية، في: نادية محمود مصطفى (تحرير)، العلاقات الدولية في عالم متغير: منظورات ومداخل مقارنة، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية ودار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٦)، الجزء الأول، صص ١٢٢-١٦٣

Gunther Hellmann, International Relations as a field of Study, International Encyclopedia of Political Science, in: Bertrand Badie, Dirk Berg-Schlosser, Leonardo Morlino (eds.), Sage Publications, 2011, The online version in abridged form is available at http://www.sage-reference.com/view/intlpoliticalscience/n295.xml

David L Blaney and Arlene B Tickner, "International Relations in the Prison of Colonial Modernity", International Relations, March 2017, link: https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/0047117817691349

أو الفرنسية[١]. لكن الاختلاف ما بين الإسهام من خارج المركز الغربي وبين نظريات العلاقات الدولية غالبا ما يتجاوز مجرد الانفصال الجغرافي إلى درجة من درجات الاختلاف حول المنطلقات المعرفية أو الأنطولوجية أو المنهاجية في الحقل فعلى سبيل المثال تستبطن كل من المدرسة الصينية والمدرسة الهندية تصورات مختلفة عن العلاقة بين المادي وغير المادي، عن العلاقة بين القيم والعلم، تتناقض تصوراتهم صراحة مع التصور الوضعي حول إمكانية الفصل بين العلم والقيم[٢]. تشير الأدبيات أيضا إلى إسهامات نظرية تتجاوز في منطلقاتها ومرجعيتها حدود الدولة القومية وتعبر عن خصوصيات حضارية أو ثقافية. يحمل على سبيل المثال طرح نظري بملامح إفريقية مقولات معرفية وأنطولوجية مغايرة عن تلك السائدة في الحقل بنظرياته الوضعية ويعبر عن صبغة ثقافية واضحة[٣]، ويجد البعض في إسهام نظري من مرجعية حضارية إسلامية في العلاقات الدولية إمكانيات كبيرة[٤]. كما تعد المدرسة المصرية لمنظور حضاري إسلامي مثالا هاما على إسهامات غير غربية انطلقت من مراجعات فلسفية للعلم من مرجعية ثقافية وحضارية ودينية تتجاوز المرجعية القومية[٥].

ومـع التسليم بكل هذا التنوع غير الغربـي، يظل للإسهام النظـري الصيني دلالته، فالدائـرة الحضارية الصينية من أهم الدوائر الحضاريـة فـي عالمنا المعاصر بحكم الكثـرة

---

[1] **Revise Part II of the edited book:**
Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian, The Study of International Relations: The State of the Art, (New York: Palgrave Macmillan in Association with Millenium Journal of International Relations, 1989), pp. 189-360

[2] **Navnita Chadha Behera, "Re-imagining IR in India", in: Barry Buzan and Amitav Acharya, Non-Western International Relations Theory: Perspectives on and beyond Asia, op cit, pp. 92-116**
Deepshikha Shahi and Gennaro Ascione, op cit

3 Isaac Odoom and Nathan Andrews, "What/who is still missing in International Relations scholarship? Situating Africa as an agent in IR theorizing", Third World Quarterly, Vol. 38 , no. 1, 2017, pp.42-60

٤ راجع على سبيل المثال:
John Turner, Religious Ideology and the Roots of the Global Jihad: Salafi Jihadism and International Order, (New York and Hampshire: Palgrave Macmillan, 2014), Chapter 4, pp. 63-77
Sohail Hashmi, "Toward an Islamic Ethics of International Relations: A Research Agenda," American Journal of Islamic Social Sciences, Vol. 10, Spring 1993, pp. 88-95.
Bijan Bidabad, "Foundations of International Relations: an Islamic Sufi Approach", International Journal of Law and Management, Vol. 53, Issue 4, pp. 313-341

٥ راجع حول مسيرة تطور المدرسة المصرية في منظور حضاري إسلامي منذ السبعينيات وعبر الثمانينيات مع خبرة مشروع العلاقات الدولية في الإسلام:
نادية محمود مصطفى، مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية، في: نادية محمود مصطفى، العلاقات الدولية في عالم متغير: منظورات ومداخل مقارنة، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية ودار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٦)، الجزء الأول، صص ٥٧-٧٠
نادية محمود مصطفى، إشكاليات البحث والتدريس في علم العلاقات الدولية من منظور حضاري مقارن، في: أحمد فؤاد باشا وآخرون، المنهجية الإسلامية، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠)، الجزء الثاني، ص ٨٧٦، ٨٧٧
أميرة أبو سمرة، منظور حضاري إسلامي في خريطة جديدة لحقل العلاقات الدولية، مجلة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، المجلد العشرون، العدد الثالث، يوليو ٢٠١٩

العددية - والتي تنعكس تلقائيا على أعداد المراكز البحثية والجامعات والباحثين، وبحكم امتلاكها لمرجعية فكرية وفلسفية ومعرفية ذات خصوصية مستمدة من الكونفوشية، ناهيك عن ظهور الحضارة الصينية في كثير من الأدبيات التقليدية في العلاقات الدولية كمصدر تهديد مادي تارة وغير مادي تارة أخرى للحضارة الغربية وقيمها الليبرالية، وهو ما يكسب مشروعية لسؤال حول قدر التحدي الذي تشكله إسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية في مواجهة المسلمات الغربية التي نهض عليها الحقل[١]. يضاف إلى هذا كله أن إسهامات نظرية صينية في الحقل عاصرت فترات من تاريخ حقل العلاقات الدولية انفردت فيها المنهاجية الوضعية بحق إنتاج "العلم"، ثم عاصرت فترات من تاريخ الحقل انفتح فيها على مناهج ومنهاجية ما بعد وضعية، كما مرت الإسهامات النظرية الصينية نفسها بأطوار وأجيال تسمح ربما بأن نختبر من خلالها مدى مرونة الحقل من حيث قدرته على استيعاب الاحتياجات المنهجية والمنهاجية لأصحاب الثقافات والحضارات غير الغربية. ناهيك عن أن الإسهام النظري الصيني الصاعد -منذ الثمانينيات على أقل تقدير- ربما هو الأكثر حظوا بالاهتمام في الحقل من بين الإسهامات غير الغربية بحكم الصعود المستمر للصين كقوة كبرى غير غربية في النظام[٢]، ومن ثم تتقاسم الاهتمام به الدوائر العلمية والسياسية داخل الصين - الساعية للصعود- والدوائر خارجها - المتأثرة بهذا الصعود- على حد سواء.

تأسيسا على هذه الملاحظة الأخيرة تجدر الإشارة إلى أن الأدبيات تختلف في تحديد طبيعة المساهمين في التأسيس لإسهام نظري صيني في العلاقات الدولية. يتوسع البعض في تحديد المشاركين في بناء هذا الإسهام الصاعد ليشمل متخصصين في الصين من خارجها، بالإضافة إلى متخصصين في العلاقات الدولية من داخلها، ناهيك عن بعض المعنيين بالبحث عن نظريات غير غربية في العلاقات الدولية بشكل عام من المنتمين إلى تيارات المراجعة ما بعد الوضعية في

١راجع في هذا الخصوص:

Linsay Cunningham-Cross, In search of a Chinese School: Ghostly encounters with the parochial/global discipline of international relations ,The University of Manchester, Doctoral Thesis, May 2014, p. 24

راجع أيضا طرح هانتنجتون الشهير حول صدام الحضارات والذي توقع ضرورة الصدام بين الحضارة الغربية من ناحية والحضارة الإسلامية والصينية من ناحية أخرى في فترة ما بعد الحرب الباردة:

Samuel Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, (New York: Simon and Schutzer, 1996)

٢ راجع حول تحليل لدلالة هذه المسألة:

نادية محمود مصطفى، مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية، مرجع سابق، ص ١٤٥، ١٤٦

Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, GIGA Research Programme: Power, Norms and Governance in International Relations, German Institute of Global and Area Studies, No 188, March 2012, p. 5

الحقل[1]. تجمع هذه الدراسة بين التفات إلى إسهام نظري قدمه صينيون -سواء عرضته دراسات لكتاب صينيين أو غير صينيين، وبين إسهام نظري قدمه غير صينيين استنادا إلى أطر مفاهيمية أو ثقافية صينية.

لا تدعي الدراسة بحال أنها تقدم مسحا شاملا لما كتب من إسهامات نظرية صينية وعنها أو لجميع اتجاهاتها، وإنما تتوقف عند بعض نماذجها الدالة بما تيسر من الفهم والتحليل.

ومن ثم، وإذا كان البعض في حقل العلاقات الدولية - بحكم تطورات معرفية وأنطولوجية، وفي اللب منها تطورات منهاجية- قد أضحى يلح على أهمية إشراك غير الغربيين في التنظير في الحقل، فإن سؤالا يتولد حول علاقة الإسهامات غير الغربية بالمناهج والمنهاجيات القائمة في هذا الحقل. إلى أي مدى تجد هذه الإسهامات في المناهج الغربية والمنهاجية الغربية -خاصة ما بعد الوضعية- ما يلبي احتياجاتها للمشاركة في العلم، وإلى أي مدى تقدم الإسهامات غير الغربية جديدا ذا خصوصية على صعيد المناهج والمنهاجيات تتجاوز به ما قدمه الغرب؟ ومن ثم ما الإضافة التي تحملها على صعيد تعريف "العلم" وعلى صعيد عملية إنتاجه في حقل تنافست فيه التعريفات لمعنى العلم والعلمية عبر مراحل تطوره المنهجي والمنهاجي؟ وإذا كان الإحكام المنهاجي للحقل يحكم على جودته كحقل أكاديمي، فهل تقدم الإسهامات غير الغربية جديدا على مستوى المنهاجية العلمية يفسح لها مكانا بين مصاف منتجي العلم في الحقل أم أن أقصى ما تحقق لها هو أنها أصبحت موضوعا لاهتمام مناهج ومنهاجيات قائمة بالفعل؟ تسعى الدراسة للإجابة على هذه الأسئلة من خلال استدعاء نموذج الإسهام النظري الصيني. فحول المناهج والمنهاجيات في نطاق الإسهام النظري الصيني تدور هذه الورقة بحثا عن جديد في حقل أضحى مهتما بالانفتاح على أصوات غير غربية - أو على وجه أدق- ما بعد غربية تجدد لحقل العلاقات الدولية دماءه وتدفع به نحو علم وعالم أكثر واقعية وعدالة.

تنقسم هذه الورقة إلى جزأين أساسيين يتناول **الجزء الأول** عبر جزئيتين: مسار التطور المنهجي والمنهاجي لحقل العلاقات الدولية وصولا إلى دعوات مراجعة معاني الموضوعية والعلمية في الحقل من أجل استيعاب تعددية حضارية وثقافية لا يعبر عنها علم العلاقات الدولية السائد بمركزيته الغربية، شارحا بذلك المقصود بـ "ما بعد الغرب". ويتناول الجزء الثاني عبر جزئيات ثلاث نماذج لإسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية، متوقفا عند أبرز محطات هذا

1 Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 5

الإسهام ثم بعض أنماطه. يميز هذا الجزء بين نمطين أساسيين من أنماط الإسهامات النظرية الصينية في العلاقات الدولية؛ نمط تكاملي/ توفيقي يجد في مناهج ومنهاجيات الحقل ما يلبي احتياجات تقديم إسهام صيني في العلاقات الدولية -سواء من داخل الدائرة العلمية الصينية أو من خارجها، ونمط تقليدي يقدم مراجعات نظرية وفلسفية ومنهاجية لما هو سائد في الحقل. وتتوقف خاتمة الورقة عند عدد من الخلاصات حول قدرة المناهج والمنهاجيات القائمة في الحقل على استيعاب الاحتياجات النظرية لبؤر حضارية وثقافية غير غربية في ضوء القراءة في تجربة الإسهام النظري الصيني في العلاقات الدولية.

أولا، جدال المناهج والمنهاجيات في حقل العلاقات الدولية:

تحدد المناهج تلك "الخطوات المحددة" التي يجب على الباحث أن يستوفيها ليحصل على إجابة على سؤال بحثي بعينه. أما المنهاجية فتمثل ذلك المنطق الكامن خلف البحث العلمي، أو بقول آخر "العملية" التي يتفق الباحثون في حقبة زمنية محددة على أنها تنتج "علما"١. ومن ثم تنبثق المناهج عن المنهاجية، فقد تقبل منهاجية بوجود مناهج بحثية معينة، بينما تتحفظ منهاجية أخرى على وجودها.

لم تخل جدالات حقل العلاقات الدولية أبدا من بعد منهاجي، شهد الحقل في غمار مراحل تطوره تطورا "منهجيا" تراوحت معه المناهج بين كمي وكيفي -في نطاق المنهاجية الوضعية، ولكنه شهد كذلك تطورا "منهاجيا" انتقل معه الحقل من سيطرة المنهاجية الوضعية إلى تعايش المنهاجيتين الوضعية وما بعد الوضعية بين جنبات دراسات الحقل، وهو التطور الذي تستعرض الورقة أبرز محطاته في الجزئية التالية.

١- بين تعددية منهجية وتعددية منهاجية: مسار تطور حقل العلاقات الدولية

تطور الجدال الأول الكبير في حقل العلاقات الدولية؛ جدال المثالية في مواجهة الواقعية٢، لينبثق عنه في مرحلة الجدال الثاني الكبير في الحقل جدال حول مناهج ومنهاجية دراسة العلاقات الدولية: جدال منهجي بين السلوكية (الإمبريقية الكمية الإحصائية الرياضية) وبين التقليدية (التي تستعين بمناهج التاريخ والنظرية السياسية والقانون)، وكذلك جدال منهاجي حول كيفية تأسيس "علم" علاقات دولية؛ بين من يرى أن العلاقات الدولية هي أقرب ما يكون إلى العلوم الطبيعية حيث الوصف والقياس والملاحظة والحساب أدوات بحثية أساسية، وبين من يرى أن العلاقات

1 A.Kaplan, The Conduct of Inquiry: Methodology for Behavioral Science, (Scranton: Chandler Publishing Co., 1964)

٢ وهو لم يحظ بمسمى الجدال الأول إلا في الخمسينيات على يد Hans Morgenthau، راجع في هذا الصدد:
Gunther Hellmann, op cit, p. 18

الدولية هي أقرب ما يكون إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية حيث التحليل والتأمل هما مفتاح فهم الواقع الدولي واستيعاب أبعاده، وحيث الظاهرة الاجتماعية لا يمكن نزعها عن إطارها القيمي[١]. ارتبط بهذا الجدال جدال آخر حول إمكانية الاستقلال بعلم منفصل لدراسة العلاقات الدولية في مقابل كون العلاقات الدولية منطقة بحثية مشتركة تتشاركها العديد من الحقول والعلوم، ناهيك عن الجدال حول إمكانية صياغة نظرية عامة للعلاقات الدولية[٢]. ففي مقابل أسئلة تطرح اليوم في حقل العلاقات الدولية عما إذا كانت العلاقات الدولية لازالت تهتم بالعلم الاجتماعي الأمريكي أو عن سر غياب نظرية علاقات دولية غير غربية وغيرها من الأسئلة التي يبدو أنها قد حسمت الخلاف لصالح اعتبار العلاقات الدولية "علما" ولصالح وجود نظرية محددة يمتلكها هذا المجال البحثي، كانت هناك أدبيات حتى مطلع الستينيات تتساءل عما إذا كان من الممكن اعتبار العلاقات الدولية بمثابة علم مستقل discipline عن غيره من العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وحتى العلوم السياسية، وعما إذا كان من الممكن تطوير نظريات تخدم هذا العلم بعينه وتفسر ما ينشغل به من قضايا وموضوعات.[٣]

أما **الجدال الثالث الكبير** فاجتمعت فيه المراجعة المنهجية والموضوعية اللتان ميزتاه على أهمية القبول بالتعددية ؛ وتبلورت في السبعينيات منافسة منهجية بين السلوكية وما بعد السلوكية حول "خطوات" البحث العلمي وانتهت إلى أهمية الجمع بين المناهج الكمية والمناهج الكيفية التحليلية، لحقتها في السبعينيات وبشكل أكبر مع الثمانينيات حالة من التقبل للمنافسة والتعددية المنظورية على مستوى موضوع العلاقات الدولية بقبول أهمية كل من الواقعية والليبرالية والماركسية.

وحتى يومنا هذا يقبل الحقل بما وصل إليه هذا الجدال الثالث الكبير من نتائج، فتتردد فكرة التعايش مع التعددية المنظورية بين جنبات دراسات عدة، خاصة تلك التي حسمت التنافس بين المناهج الكمية والكيفية لصالح التعايش بينهما[٤]. وبينما توقفت العديد من الدراسات -سواء على صعيد المضمون أو المنهج- عند تلك الحقبة من تطور الحقل لم تغادرها -فظلت أسيرة القضايا

1 Fred Chernoff, Theory and Metatheory in International Relations: Concepts and Contending Accounts, (New York: Palgrave Macmillan, 2007), p. 2

٢ Richard Finnegan, "International Relations: The Disputed Search for Method", The Review of Politics, Vol. 34, No. 1, Jan 1972, p. 40

٣ راجع على سبيل المثال:

Morton Kaplan, Is International Relations a Discipline?, Journal of Politics, XXIII, 3, 1961, pp. 462-465

4 D. F. Sprinz & Y. Wolinsky-Nahmias, Introduction: Methodology in International Relations Research. In: D. F. Sprinz & Y. Wolinsky-Nahmias (eds.), Models, Numbers and Cases: Methods for Studying International Relations, The University of Michigan Press, 2004.

العسكرية والاقتصادية مستعينة في دراستها بمناهج وضعية كمية أو كيفية، التفتت تدريجيا أعداد متزايدة من الدراسات إلى إمكانية تقسيم الدراسات النظرية في العلاقات الدولية إلى مجموعتين: لتقف مجموعة النظريات التقليدية في الحقل (الواقعية والليبرالية والماركسية) في مواجهة مجموعة من النظريات النقدية (النظرية النقدية، وما بعد البنيوية، والمدرسة الإنجليزية، والنظرية النسوية النقدية، والنظرية ما بعد الكولونيالية، والنظرية البنائية الاجتماعية، إلخ). ويلاحظ أن معظم النظريات المسماة بالنقدية كانت قد بدأت إسهامها في الحقل متأثرة بالمناهج الوضعية ومحتفظة إلى حد بعيد بسمت "المنهاجية" الوضعية؛ حيث وظيفة العلم هي التيقن من صحة مجموعة من الفرضيات القابلة للاختبار حتى وإن تطور مضمون هذه الفرضيات ليلتفت إلى قضايا وأبعاد لم يلتفت إليها العلم تقليديا من قبيل القيم أو البيئة أو المرأة أو الهوية والثقافة[١]. لكن تدريجيا تطورت الكثير من روافد هذه النظريات النقدية واستدعت من حقول الفلسفة والاجتماع والأنثروبولوجيا مناهج ومنهاجية "ما بعد وضعية" ليظهر بذلك ما يشير إليه البعض بالجدال الرابع الكبير ويشير إليه البعض الآخر بالجدال "فيما وراء النظرية" كجدال نظري يفصل بين أصحاب النظريات ذات المنهاجية الوضعية وأصحاب النظريات ذات المنهاجية ما بعد الوضعية في العلاقات الدولية٢. يفصل فعليا بين النظريات التقليدية والنظريات النقدية الوضعية من ناحية وبين النظريات النقدية ما بعد الوضعية من ناحية أخرى فجوة منهاجية كبيرة، تتميز الأخيرة بمنهاجية ما بعد وضعية انعكاسية وبمناهج تفكيكية لا تتعامل مع الواقع على اعتباره مستقلا عمن يدرسه ويسعى لفهمه ولا تؤمن بحياد النظرية، وإنما تؤمن بأن علاقات القوة الاجتماعية تشكل الأطر الفكرية التي نحكم من خلالها على الواقع ونفهمه عن طريقها٣.

ولهذا يقسم البعض النظريات النقدية إلى مجموعتين، النظريات النقدية الوضعية والنظريات النقدية ما بعد الوضعية، فتسكن على سبيل المثال النظرية البنائية الاجتماعية ضمن المجموعة الأولى، بينما تسكن النظرية البنائية النقدية ضمن المجموعة الثانية، وتختلف النسخة النسوية الوضعية عن النسخة النسوية ما بعد الوضعية في منطق تناولها للواقع الدولي وهكذا٤.

---

١ راجع في هذا الصدد على سبيل المثال:

Steve Smith and Patricia Owens, "Alternative Approaches to International Theory", in John Baylis and Steve Smith (eds.), The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations, (Oxford University Press: Oxford, 2005), 3rd edition, p. 273

٢ حول مراحل تطور جدالات حقل العلاقات الدولية وصولا إلى الجدال الرابع الكبير انظر:

نادية محمود مصطفى، مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية ، مرجع سابق، صص ٥٨-١٦٣

3 Fred Chernoff, op cit

٤ ليس التصنيف بهذه السهولة، فهناك مساحات للخلاف كأن يجد البعض في كل من البنائية والجرامشية الجديدة مقومات المنهاجية ما بعد الوضعية.

راجع في هذا الخصوص:

٢- نحو حقل يستوعب العالم فيما بعد الغرب:

كشفت نظريات ما بعد الوضعية عن تحيزات أساسية تميز حقل العلاقات الدولية ونظرياته حيث تتحيز نظرياته الوضعية تحت دعاوى العلمية والموضوعية لصالح الغربي على حساب غير الغربي ولصالح الرجل على حساب المرأة ولصالح المادي على حساب غير المادي ولصالح العلماني على حساب الديني، إلخ.. فهي محملة بتحيزات لا يمكن الكشف عنها إلا بعملية منظمة من المراجعة المعرفية والأنطولوجية والمنهاجية لحقل العلاقات الدولية١.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن المراجعات ما بعد الوضعية في الحقل لم تكن منتجا لعقول غربية فحسب. تعتبر على سبيل المثال نظرية ما بعد الكولونيالية ونظرية التحرر من الاستعمار من أبرز الإسهامات النظرية ما بعد الوضعية، تأسست الأولى بفضل إسهامات Edward Said، وHomi Bhaba وGayatri C Spivak أصحاب الأصول الشرق الأوسطية وجنوب الآسيوية، بينما ظهرت الثانية متأثرة بأفكار Anibal Quijano، وWalter Mignolo أصحاب الأصول الأمريكية اللاتينية. لكن هذه النظريات لم تجد طريقها إلى النور إلا عن طريق الغرب؛ خرجت من جامعاته وانتشرت من دور نشره وعلى صفحات دورياته٢، وهو ما يؤكد وجود خلل في توازن إنتاج المعرفة في الحقل وفي المشاركة غير الغربية في جدالات الحقل المنهجية والمنهاجية؛ فقصة جدالات الحقل لازالت قصة غربية بالأساس، تدور كل أحداثها على الأراضي الغربية ومنها تنتشر إلى العالم، قصص لا تعرف أبطالا غير غربيين -من حملة رايات التنظير والفكر- إلا بقدر ما تتقاطع مصائرهم مع أبطال غربيين يروجون لأفكارهم أو يشتبكون معها.

وهي مسألة تجد من الإحصائيات ما يدعمها، فقد ظل حقل العلاقات الدولية -رغم كل ما مر به من تطورات- حقلا أمريكيا بالأساس وحقلا غربيا بدرجة كبيرة؛ فنصيب الولايات المتحدة وحدها حوالي ٢٥ إلى ٣٠% من المتخصصين في الحقل، ونصيب كندا وأوروبا وإسرائيل

- Nicolas Lamp, Towards a Critical Theory of Globalization, Paper presented at the 47th Annual Convention of the International Studies Association, San Diego, March 22-25, www.allacademic.com
- Richard Price and Christian Reus-Smit, "Dangerous Liasions? Critical International Theory and Constructivism", European Journal of International Relations, London, Vol. 4 (3), 1998, pp. 259-294
- Samuel Barkin, "Realist Constructivism", International Studies Review, 5, 2003, pp. 325-342
١ Arlene Tickner, "Core, periphery and (neo)imperialist International Relations", European Journal of International Relations, 19(3), 2013, p. 628-635
٢ Gurminder K. Bhambra, Postcolonial and Decolonial Dialogues, Postcolonial Studies, 2014, Vol. 17, No. 2, pp.15–121

وAustralasia حوالي ١٥ إلى ٢٥%. والمسألة تتعدى الكم إلى الكيف؛ رصدت إحدى الإحصائيات كيف أن ٩٤% من القراءات المقررة على طلبة الدكتوراه في أقسام العلوم السياسية العشرة الأولى على مستوى العالم هي قراءات كتبها أمريكيون أو دارسون في أمريكا. تشكل هذه القراءات ذهنية الباحثين في الحقل، وتدور معهم دورة كاملة لتترك -عندما تحين الفرصة- أثرها على نوعية الأبحاث التي يقبلونها للنشر وموضوعات الرسائل العلمية التي يقبلون إجازتها. [١]

على أية حال، اجتمعت النظريات النقدية ما بعد الوضعية -تصحيحا لأوضاع الحقل المختلة- على عدد من المشتركات المنهاجية الأساسية كالمعيارية والانعكاسية والبينية، وكان من بين مشتركاتها المنهاجية -ربما بتأثير من إسهامات لأسماء غير غربية- حرص على إشراك دوائر حضارية غير غربية في إنتاج العلم٢.

تنطلق الأدبيات النقدية في دعوتها لإشراك دوائر حضارية غير غربية في إنتاج العلم من تصور وجود علاقة متبادلة بين القوة المادية وبين إنتاج المعرفة، حيث يمتلك أصحاب القوة المادية القدرة على الترويج لمعارفهم وكسب المؤيدين لها في داخل دوائرهم وخارجها على حد سواء. يستخدم Jörg Friedrichs تصنيفا لهيكل إنتاج المعرفة في الحقل يميز من خلاله بين: المركز وأشباه الأطراف semi periphery والأطراف وأطراف المركز ومركز الأطراف وأطراف الأطراف حيث يسيطر المركز (الأنجلو-أمريكي) على إنتاج العلم والمعرفة فيحدد ما هو السائد أو المهيمن في الحقل، ويتواصل في ذلك مع أشباه الأطراف (الدوائر الأوروبية) والتي تسهم بدرجة أقل في تشكيل الحقل وتحديد أولوياته. أما الأطراف (والمتمثلة في الدوائر الأكاديمية غير الغربية) فتتلقى هذه المعرفة التي ينتجها المركز (الأنجلو-أمريكي) وتروج لها في دوائرها الخاصة من خلال أكاديمي يتلقى الكثير من أبنائها دراسته في الخارج، ويدافع معظم أبنائها عن المعرفة التي ينتجها المركز باعتبارها "الأفضل والأكثر علمية"٣. وهنا يأتي التمييز بين مراكز الأطراف وبين أطراف الأطراف، ففي حين ما تتعايش مراكز الأطراف مع هذا التهميش، بل وتسهم فيه بدرجة أو بأخرى، كما سيلي التفصيل، ترفض أطراف الأطراف هذا التهميش ولا تجد فيما ينتجه المركز ما يعبر عن أولوياتها ومصالحها، ومن ثم لا تتفق مع مركز الأطراف في سعيه للترويج لهذا المنتج بحجة أفضليته أو علميته.

---

١ Gunther Hellmann, op cit, p. 12, 13

2 Branwen Gruffydd Jones, International Relations, Eurocentrism and Imperialism, in: Branwen Gruffydd Jones (ed.), Decolonizing International Relations, (Lanham: Rowman and Littlefield, 2006), pp. 1-19

نادية محمود مصطفى، مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية، مرجع سابق، صص ١٢٢-١٦٣

3 Jörg Friedrichs, European Approaches to International Relations Theory: A House with many Mansions, The New International Relations Series, (New York: Routledge, 2005)

تساهم مراكز الأطراف -بشكل عام- نفسها في عملية التهميش التي تتعرض لها الأطراف في الحقل عن طريق "التهميش الذاتي"، حيث تتجاهل عادة ما ينتج في داخل دوائر الأطراف، سواء القديم والتراثي منه أو المعاصر والتجديدي[١]، فلا تحرص على تداوله ومناقشته داخل دوائرها.

كما تشارك مراكز الأطراف بنصيب في عملية التهميش بحكم ضعف اهتمام الغالبية العظمى من باحثيها بالجوانب النظرية، في مقابل غلبة الانشغال بالموضوعات السيارة والأحداث الجارية على كتاباتهم، خاصة تلك ذات الدلالة بالنسبة للسياسة الخارجية، حيث تظل الدولة غالبا هي وحدة التحليل الأساسية فيما تنتجه مراكز الأطراف من إسهام علمي[٢].

تسهم مراكز الأطراف في عملية التهميش بضعف ما تقدمه من مراجعات للأطر النظرية والأطر المنهجية والمنهاجية السائدة في الحقل، تنخرط عادة في استهلاك لأطر نظرية ومنهجية وافدة دونما انشغال بتبرير أسباب اختيار منهج بعينه أو إثبات مدى ملاءمة نظرية بعينها. تصدق هذه السمة بشكل أدق على الدراسات المنشورة في دوريات غير غربية، حيث تنحى الجدالات النظرية والمنهجية جانبا وتتقلص مساحتها، وذلك على عكس الاتجاه المترسخ في الدوريات الغربية من الجمع بين النظري والتطبيقي[٣].

لكن إذا كانت مراكز الأطراف -وبمشاركة منها- تتعرض للتهميش بحكم ضعف إنتاجها واستغراقها في استهلاك العلم ونظرياته وأدواته المنهجية والمنهاجية التي ينتجها المركز، فإن ثمة تهميش من نوع آخر تتعرض له أطراف الأطراف (ممن يمتلكون تصورا مختلفا حول الحقل وأجندته وقضاياه ومناهجه ومنهاجياته يميزهم عن مركز الأطراف الذي يتعاطى العلم السائد والمهيمن بأريحية ويروج له)، فبينما ينحصر دور مركز الأطراف بالأساس في دور المستورد أو المستهلك لهذا العلم، لا المنتج له، تبحث أطراف الأطراف عن إمكانية تقديم إسهام نظري في الحقل يعبر عن خصوصياتها وأولوياتها ومصالحها واحتياجاتها، لكنها غالبا ما يتم تجاهلها من قبل المركز المنتج للعلم ومركز الأطراف المستهلكة لهذا العلم في آن واحد. هكذا يجتمع المركز مع مركز الأطراف على تهميش أطراف الأطراف. وتبرر هذه العلاقات المتشابكة بين مراكز

---

1 Ibid, p. 13

2 Amitav Acharya, "Global International Relations (IR) and Regional Worlds: A New Agenda for International Studies", op cit, p. 629

٣عدنان محمد حسين الهياجنة، مستوى التحليل والمنهج في الدراسات العربية لعلم العلاقات الدولية: دراسة تحليلية: ١٩٦٦-١٩٩٥، دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ٢٨، ٢٠٠١، ص ٩٩، ١٠٠

op cit, pp. 12-15 Gunther Hellman,

وأطراف ومراكز للأطراف وأطراف للأطراف وصف Bruno Latour لعلم العلاقات الدولية بالعلم الإمبريالي imperial science[١].

هذا التهميش -متعدد المستويات- للإسهامات النظرية القادمة من الأطراف (أي من دوائر غير غربية بمراكزها وأطرافها) هو تهميش تنشغل الأدبيات النقدية ما بعد الوضعية بالتصدي له بكافة أشكاله ومستوياته[٢]. وربما لهذا تتنوع المسميات في دعوات مختلفة تطالب بوجود علم علاقات دولية "غير غربي" non-Western[٣] أو علم علاقات دولية "فيما بعد الغربي"-post Western[٤] أو علم علاقات دولية "عالمي" global IR[٥] أو علم "علاقات دولية من الجنوب العالمي" Global South[٦]، وهي دعوات يلفت أنصارها أحيانا النظر إلى أن مجرد الالتفات إلى إسهام "غير الغربي" أو إلى ما يقدم من دوائر أكاديمية تقع في الجنوب، لا يضمن بالضرورة أن يأتي هذا الإسهام بما هو مختلف عما هو سائد ومهيمن في الحقل بكل ما قد يحمله من تحيزات ضد غير الغربي[٧]، وهي الفكرة التي يعبر عنها وجود "مراكز للأطراف". كما أن مجرد التفات إلى إسهام غير غربي لا يعني بالضرورة أن غير الغربي سيقف على قدم المساواة مع الغربي ليسهم في إنتاج علم "عالمي" بحق أو ليسهم بمنهاجيته ومرجعيته الفلسفية والمعرفية في تجاوز ما أرساه الإسهام النظري الغربي السائد في الحقل من تحيزات ضده. تبدو إذا صفة "غير الغربي" أو صفة "الجنوب" هي الصفات الأكثر عمومية متى أردنا توصيف الإسهام النظري من دوائر غير غربية، لكنها توصيف للمصدر الجغرافي أكثر منها توصيف لخصوصية تميز المضمون أو المنتج النظري النهائي. وبينما يبدو توصيف "علم علاقات دولية عالمي" هو الأكثر طموحا من بين هذه التوصيفات، حيث يتصور علما يشارك في تأسيسه الجميع على قدم المساواة، يقف توصيف "فيما بعد الغرب" في مساحة وسط بين "غير غربي" و"عالمي"،

1 Arlene Tickner, op cit, p.628

2 -Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian, Editors' Introduction, in: Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian (eds.), op cit, p. Xvii

-Tayyar Ari and Elif Toprak, Preface, in: Tayyar Ari and Elif Toprak (eds.), Theories of International Relations II,(Eskisehir: Andolu University, 2019), p. V

3 Barry Buzan and Amitav Acharya, op cit

4 Deepshikha Shahi and Gennaro Ascione, "Rethinking the Absence of Post-Western International Relations Theory in India: 'Advaitic Monism' as an Alternative Epistemological Resource", European Journal of International Relations, Vol. 22, Issue 2, 2016, link: https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/1354066115592938

5 Amitav Acharya, "Global International Relations (IR) and Regional Worlds: A New Agenda for International Studies", International Studies Quarterly, Volume 58, Issue 4, December 2014, pp. 647–659

6 Arlene Tickner and Karen Smith, Introduction: International Relations from the Global South, in: Arlene Tickner and Karen Smith (eds.), International Relations from the Global South: Worlds of Difference, (Routledge, 2020)

7 Branwen Gruffydd Jones, op cit

فيتطلع توصيف "فيما بعد الغرب" إلى جديد يتجاوز به غير الغربي -بالمراجعة أو الإضافة- ما قدمته الدائرة الحضارية الغربية من إسهام سائد ومهيمن في الحقل، وهو التوصيف الذي تستعين به هذه الدراسة في قراءتها لنماذج من الإسهام النظري الصيني بحثا عن جديد تقدمه على صعيد المناهج والمنهاجية.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن السنوات العشر الأخيرة حملت تطورا حقيقيا في وضع "أطراف" المركز (والمتمثلة بالأساس في أصحاب المراجعات النقدية ما بعد الوضعية لما هو سائد ومهيمن في الحقل من نظريات تقليدية واقعية وليبرالية وغيرها)، حيث انتقلت من موضع ثانوي في الحقل لتظهر تدريجيا في مصاف النظريات الأساسية في الحقل. تحظى الإسهامات النظرية النقدية ما بعد الوضعية اليوم بدوريات كاملة، وتعقد لأجلها مؤتمرات دولية، وتتقاسم نظرياتها فهارس الكتب جنبا إلى جنب مع النظريات التقليدية[١]. في المقابل نادرا ما تظهر إسهامات نظرية من الأطراف كجسد متكامل أو مستقل من الإسهام النظري في الأدبيات المعنية بنظريات العلاقات الدولية تحت مسمى "نظرية"[٢]. ولعل في هذا ما يفسر استخدام هذه الدراسة لوصف "إسهامات نظرية غير غربية" كبديل عن "نظرية غير غربية". لا يقلل هذا بالطبع من أهمية الأصوات من داخل المراجعات ما بعد الوضعية التي تستنكر غياب نظريات غير غربية عن السائد والمتداول في حقل العلاقات الدولية وتطالب بضرورة إعادة قراءة مفاهيم وعمليات ونظريات العلاقات الدولية على نحو يستوعب رؤى غير غربية حولها، لكن المشاركة غير الغربية في الحقل لا زالت لا تترك أثرا يذكر على توازنات إنتاج المعرفة داخل الحقل، ولا زالت غالبا ما لا تظهر تحت مسمى "النظرية".

هذا وتظهر في كثير من الأدبيات مناهج البحث ومنهاجيته كنقطة انطلاق هامة لتصحيح هذا الخلل في علاقات إنتاج العلم والمعرفة في حقل العلاقات الدولية.

١انظر على سبيل المثال دوريات من قبيل Millenium أو Alternatives وكتب أساسية في نظرية العلاقات الدولية من قبيل:

- **Timothy Dunne, Milja Kurki and Steve Smith, International Relations Theories: Discipline And Diversity, (Oxford: Oxford University Press, 2013), 3rd ed.**
  --سكوت بورتشيل وآخرون، نظريات العلاقات الدولية، ترجمة: محمد صفار، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤)
- **Tayyar Ari and Elif Toprak (ed.), op cit**

٢ ظهرت فصول مستقلة تحت عناوين رؤى آسيوية أو رؤى الجنوب العالمي في:

- **Stephen McGlinchey, Rosie Walters and Christian Scheinpflug (eds.), International Relations Theory, (Bristol: E-International Relations Publishing, 2017)**

وظهر التفات إلى مقولات "نظرية" صينية وهندية ويابانية وكورية وإسلامية أو ظهر التفات لها في صورة تساؤلات عن أسباب غيابها في:

- **Barry Buzan and Amitav Acharya, Non-Western International Relations Theory: Perspectives on and beyond Asia, (New York: Routledge, 2010)**

تشترك الكثير من الدراسات النقدية في التأكيد على أن المناهج التقليدية في العلاقات الدولية غير كافية وغير ملائمة لدراسة غير الغربي بمختلف ملامح خصوصيته. تلفت العديد من الأدبيات ما بعد الوضعية الأنظار إلى أن هيمنة النظريات والرؤى والمناهج الغربية -وخاصة الأمريكية- على الحقل أثرت بدرجة كبيرة على قدرة الأدبيات على استيعاب أبعاد غير مادية للظاهرة الدولية. مفاهيم كالجهاد والأمة لدى المسلمين أو الهيمنة لدى الصينيين أو الدولة لدى الهنود تعجز الرؤية الوضعية عن استيعاب مختلف أبعادها، ومفاهيم أساسية كالدولة والفوضى والأمن والقوة، رغم انتشارها كمفاهيم تحليلية في سياقات جغرافية مختلفة، تظل كثيرا غير ملائمة لدراسة الواقع غير الغربي[1]، ناهيك عن الواقع الغربي ذاته؛ وهو الأمر الذي يبرر ظهور إسهامات نظرية تحمل مسميات كالمدرسة الإنجليزية أو النظرية القارية Continental IR theory كإسهامات نظرية غربية لم تجد في نظريات العلاقات الدولية الأنجلو أمريكية الغربية القائمة ولا حتى في تاريخ تطور جدالاتها المشهور تعبيرا كافيا عن فهمها هي للعلاقات الدولية وتاريخ خبرتها هي مع الحقل[2].

في المقابل اقترحت بعض الدراسات توسيع رقعة المناهج في العلاقات الدولية بالاستعانة بتخصصات من خارج الحقل سعيا نحو فهم أفضل لغير الغربي في سياقه الثقافي والاجتماعي. وليس حديث البعض عن التحليل النقدي للخطاب critical discourse analysis للكشف عن التحيزات المعرفية الكامنة خلف الخطاب الأكاديمي أو السياسي وخطابات المقاومة لهذه التحيزات[3] أو حديث البعض عن الحاجة إلى نقلة إثنوغرافية في الحقل، وغيرها من المناهج والأدوات البينية إلا أشكالا معبرة عن هذا الحرص على التوسع المنهجي لاستيعاب ما بعد الغرب وما بعد الدولة وما بعد العلمانية، إلخ.[4]

وربما لهذا انتهت Arlene Tickner إلى توصية أساسية مفادها أن أصحاب الإسهامات النظرية غير المركزية -إن أرادوا إحداث تغيير حقيقي في السياسة الدولية- عليهم تجاوز حدود الحقل وفاعليه الأساسيين، ومن ثم وجدت في التوجه ما بعد الوضعي في الحقل عونا كبيرا

1 Arlene B. Tickner, "Core, periphery and (neo)imperialist International Relations", op cit, p. 628

2 Knud Erik Jorgensen, Continental IR Theory: The Best Kept Secret, European Journal of International Relations, 6(1), 2000, pp. 9-42

3 Luísa Godinho, Discourse and International Relations: a Theoretical and Methodological Approach, JANUS.NET, e-journal of International Relations, Vol. 7, no. 2, (November 2016-April 2017), pp. 1-13

4 Jean Michel Montsion , Ethnography and International Relations: Situating Recent Trends, Debates and
Limitations from an Interdisciplinary Perspective, The Journal of Chinese Sociology, 5:9, 2018, pp. 1-15

لأصحاب هذه الإسهامات ليجدوا لأنفسهم مكانا في داخله[١]. وهي ذاتها الخلاصة التي توصل إليها Sudeep Kumar حيث وجد أن الاتجاهات ما بعد الوضعية في الحقل توفر مظلة كافية لاحتواء الإسهامات النظرية غير الغربية الناشئة في الحقل.[٢]

أما Amitav Acharya فيجد المخرج في مسعى تأسيس حقل علاقات دولية عالمي[٣]، وهو حقل - في تقديره- يجب أن يخدم عملية تأسيسه أجندة بحثية مقارنة تتسع لتشمل تجارب تاريخية وكيانات غير دولية ومداخل بينية ومعيارية على نحو يقدم تعريفات جديدة للنظريات والمفاهيم انطلاقا من رؤى غير غربية وعلى نحو يقود إلى القبول بالتعددية في المناهج وزوايا النظر.

فإلى أي مدى يمكن الحديث عن تبلور تيار أو تيارات لإسهام نظري صيني في العلاقات الدولية فيما بعد الغرب يقدم جديدا وإضافة للحقل؟ وأي مخرج من حالة العيش على هامش الحقل تختار الإسهامات النظرية الصينية في العلاقات الدولية؟ مخرج الاعتماد على ما أنجزته المناهج والمنهاجيات القائمة في العلم أم مخرج الاعتماد على الذات في إنتاج المناهج والمنهاجيات بحثا عن فهم بديل للعلاقات الدولية[٤]. تستعرض الورقة في الجزء التالي مساعى متنوعة لتقديم إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية.

ثانيا، إسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية: رؤية مغايرة للوجود والمعرفة؟

تعود البدايات الأولى للاهتمام بإسهام صيني في حقل العلاقات الدولية إلى الخمسينيات منذ ذلك الحين مرت العلاقة بين الصين وبين نظرية العلاقات الدولية بعدة محطات يمكن إجمالها في ثلاث محطات؛ مرحلة الزعيم ماو، مرحلة الانفتاح والاطلاع على نظرية العلاقات الدولية، مرحلة المشاركة في الدراسات الدولية وتقديم إسهام صيني نظري في العلاقات الدولية، وهي مرحلة تتسم بدرجة كبيرة من التنوع والتعدد.

1 Arlene B. Tickner, "Core, periphery and (neo)imperialist International Relations", op cit, pp. 628-632

2 Sudeep Kumar, Theorising Chinese International Relations and the Rise of China: A Preliminary Investigation, Relaciones Internacionales, no. 54, 2018, p. 24

3 Amitav Acharya, "Global International Relations (IR) and Regional Worlds: A New Agenda for International
Studies", op cit, pp. 647-659)

4 Nele Noesselt, Revisiting the Debate on Constructing a Theory of International Relations with Chinese Characteristics, The China Quarterly, 222, June 2015, p. 431, link: https://nbn-resolving.org/urn:nbn:de:0168-ssoar-58383-6

في مرحلة الزعيم ماو- الممتدة حتى نهاية السبعينيات- كانت اللينينة-الماركسية Marxism Leninism أو الماوية maoism هي التوجه السائد في الدولة، وهي مرحلة شهدت فيها الصين ما عرف بالثورة الثقافية (١٩٦٦-١٩٧٦). قامت الماوية على تقسيمة ثلاثية للعالم: عالم أول يضم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يقوم على استغلال الفقراء والضعفاء، عالم ثان يضم القوى المتوسطة كأوروبا واليابان، وعالم ثالث يضم الدول الفقيرة المستغلة في العالم ومعهم الصين التي تساندهم وتدعم كفاحهم ضد الظلم والاستغلال، فكان النموذج المثالي الذي تروج له النظرية -كما طرحتها الرؤية الماوية Mao's vision- هو الاشتراكية. وكان جل الاهتمام بالعلاقات الدولية في هذه الحقبة منصبا على خدمة السياسة الخارجية الصينية وإمدادها بالمعلومات -تماما كما هو الحال اليوم في معظم المجتمعات النامية، وذلك بحكم هيمنة مصالح النظام السلطوي في الصين على كافة أشكال المنتجات العلمية. وكان تعريف "النظرية" في حقبة الزعيم ماو يجمع صراحة ما بين وظيفة التفسير والوصف الدقيق للواقع الإنساني وبين وظيفة التوجيه أو التغيير؛ والذي كانت غايته الأساسية إضفاء قدر من المشروعية على أفعال القيادة السياسية للبلاد. ولهذا فإن التنظير في طرح ماو كان مهمة يضطلع بها القادة السياسيون لا الأكاديميون[١].

هذا وتجدر الإشارة إلى أن اتهامات توظيف السلطة للنظرية خدمة لمصالحها لازالت تطارد مساعي تطوير "نظرية" صينية في العلاقات الدولية، حيث يجد البعض أن هذه المساعي المتنامية ما هي -في تحليلها الأخير- إلا مجرد محاولة لتوظيف العلم لخدمة الطموحات السياسية للقيادة الصينية الساعية إلى تحويل البلاد إلى قوة عظمى في النظام الدولي[٢]، ومن ثم فقد كان طرح ماو يحدث فعليا قطيعة صريحة مع التعريف السلوكي السائد للنظرية في حقل العلاقات الدولية آنذاك، حيث العلم لابد وأن يخلو من القيم وحيث النظرية المنضبطة هي تلك التي تفسر الواقع على نحو موضوعي متجرد من الذاتية والانحياز. والطريف أن المراجعات النقدية ما بعد الوضعية الغربية، والتي تبلورت في نهايات الثمانينيات وبعدها، أحدثت هي ذاتها قطيعة مع هذا التعريف السلوكي للنظرية حيث تبنت معظم هذه المراجعات تصور Robert Cox عن النظرية، حيث النظرية مهما ادعت غير ذلك تحمل ولابد تفضيلات معيارية، وتأتي دائما لخدمة غرض ما ولخدمة طرف ما. ولهذا اعتبرت المراجعات ما بعد الوضعية أن النظرية الواقعية

1 Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 10, 11
2 Emre Demir, op cit, p. 100, 101

ذاتها جاءت محملة بالتحيزات الأيديولوجية لصالح مصالح القوى المنتصرة فيما بعد الحرب العالمية الثانية.[١]

أما **المرحلة الثانية** (١٩٧٩-١٩٨٩) -المرحلة الانتقالية بعد غياب الزعيم ماو- فكانت فترة انفتاح صيني اقتصادي وسياسي ودبلوماسي نسبي على العالم، ظهرت فيها دعوات "تحديث الصين" في محاولة لتدارك عواقب فشل "الثورة الثقافية" وما خلفه هذا الفشل من عدم استقرار شديد على المستويين الاقتصادي والسياسي٢. انفتحت الصين في ظل هذه الحقبة على نظرية العلاقات الدولية وجدالاتها ونظرياتها -خاصة المهيمن والسائد منها، انفتحت على الاقترابات الغربية في العلاقات الدولية بالأساس على يد عدد من أبنائها، خصوصا ممن درسوا بالخارج، وبفضل حركة ترجمة واسعة لعدد من أبرز الدراسات الأنجلو أمريكية في العلاقات الدولية. هذا وظلت غاية ترشيد حركة السياسة الخارجية الصينية "الجديدة" حاضرة في هذه المرحلة أيضا. أسفرت هذه المرحلة من الاهتمام بالنظرية في الصين عن عدد من الجدالات الشبيهة بجدالات نظرية العلاقات الدولية في روافدها الغربية، حتى أن جدال الواقعية-الماركسية أسفر في الثمانينيات عن سيادة النظرية الواقعية في الأوساط الصينية حول الدور الذي يجب أن تلعبه الصين في العلاقات الدولية وضرورة انفتاحها على المجتمع الدولي كدولة "عادية" normal state. ثم انتقل إلى الأوساط الصينية في التسعينيات الجدال بين الواقعية والليبرالية حول تحقيق المصلحة الوطنية الصينية عن طريق الانخراط في المؤسسات الدولية أو عن طريق مراكمة القوة ليحسم الجدال لصالح التعايش بين النظريتين وأهمية جمع الصين في ممارساتها الدولية بينهما. ثم انتقل الجدال في **مرحلة ثالثة** ليحمل ملامح الجدال الواقعي-الليبرالي-البنائي حول الصعود الصيني وإمكانيات الصعود دون صدام مع القوى العظمى، ليروج الواقعيون إلى أن الصدام حتمي، ويرى الليبراليون أن اندماج الصين في مؤسسات النظام الدولي قد يكفل لها الصعود السلمي، بينما يرى البنائيون أن اندماج الصين من أجل ضمان ارتقاء سلم النظام الدولي قد يحقق لها غرضها، ولكن لابد أن يلحق تأثيرا بهويتها على نحو يعيد تشكيل بعضا من مكونات هذه الهوية، وهو جدال لا زال قائما في الأدبيات الصينية لم يحسم بعد٣.

1 Yale Ferguson and Mansbach, Reflections on the "Third Debate", The "Third Debate" 25 Years Later, Symposium, International Studies Association
Available at: https://www.isanet.org/Publications/ISQ/Posts/ID/304/25-Years-after-The-Third-Debate-Two-pianissimo-bravos-for-IR-Theory [Accessed 2019]
2 Charles Burton, China's Post-Mao Transition: The Role of the Party and Ideology in the "New Period", Pacific Affairs, Vol. 60, no. 3, Autumn 1987, pp. 431-446
3 Emre Demir, op cit, pp. 101-103

وفي خضم هذه الجدالات، ومع نهاية الثمانينيات تحديدا، ظهرت بعض الدعوات الصريحة عن أهمية تطوير "نظرية في العلاقات الدولية ذات خصائص صينية"، لتدخل العلاقة بين الصين ونظرية العلاقات الدولية إلى المرحلة الثالثة (منذ ١٩٨٩) حيث المحاولات للمساهمة الصينية فـــي التنظير للعلاقات الدولية. [١]

كان من بين الدعوات الأولى في هذا الصدد دعوات لتطوير اقتراب من العلاقات الدولية ذي خصائص متميزة يعبر عن الخصوصية الثقافية للاشتراكية الصينية، كما يميز نفسه عن النظريات الغربية ويرفع شعارات التأصيل الصيني indigenization or sinization ويستدعي الجذور الفلسفية الصينية، وهي المدارس الفلسفية التي نشأت في الحقب التاريخية المعروفة بفترة الربيع والخريف (٧٧٠-٤٧٦ قبل الميلاد) وبحقبة الممالك المتحاربة (٤٧٥-٢٢١ قبل الميلاد)، وكانت تتميز باجتهاداتها عن الدولة ونظام الحكم العادل الذي تضبطه القيم ويحقق الانسجام والاستقرار في الداخل والخارج على حد سواء.

كما دفعت الدعوات ذاتها في نهايات الثمانينيات بأهمية الاستفادة من التجربة التاريخية الصينية ودراسة الـ tianxia، تلك الرؤية الكونفوشية للعالم التي وجدت تطبيقا إداريا لها في نظام الجزية the tributary system world view والتي تجسد ذلك المفهوم الصيني عن العالم الذي يجعل منه "كل ما تحت السماء all under heaven"؛ معرفا على أنه كل المناطق التي قبلت بالخضوع لسلطة الإمبراطور الصيني، وهو المفهوم الذي تمحورت حوله العلاقات الخارجية للإمبراطورية الصينية حتى حروب الأفيون في القرن التاسع عشر (حرب الأفيون الأولى ١٨٣٩-١٨٤٢) [٢].

قد يمكن تفسير هذه الدعوات بمحاولات الصين كسر العزلة الدولية التي فرضت عليها - خاصة من الغرب- إثر أحداث ميدان تيانانمن الدموية في نهاية الثمانينيات، إلا أن الثابت هو أن محاولة التأسيس لنظرية صينية في العلاقات الدولية تلقت دفعات هامة مع منتصف العقد الأول من الألفية الثالثة تزامنت مع اهتمام رسمي بالترويج لفكرة "الصعود السلمي" أو "النمو السلمي" للصين، كان من أبرز هذه الدفعات عقد مؤتمر هام روج لهذه الفكرة ورعاها. حمل المؤتمر عنوان "بناء نظرية صينية في العلاقات الدولية، تأسيس مدرسة صينية في العلاقات الدولية".

1 Yongjin Zhang, Review: International Relations Theory in China Today: The State of the Field, The China Journal, No. 47, Jan., 2002, pp. 101-108
2 Nele Noesset, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 14, 15

تجددت في هذه الأجواء دعوات الاهتمام بالماركسية اللينينية في نسختها الصينية، حيث اعتبرتها القيادة السياسية الصينية في عام ٢٠٠٤ ركيزة أساسية من ركائز أي مساعي أكاديمية صينية لتقديم "تنظير صيني تجديدي في العلاقات الدولية" للعالم. ومع قبول البعض بدرجة من درجات التمايز المعرفي والأنطولوجي للرؤية الصينية للماركسية النابعة بالأساس من خصوصية التجربة الصينية مع الماركسية، إلا أن البعض لم يجد في مجرد "إعادة تقديم لنسخة صينية من الماركسية في عالم معولم" الكثير من ملامح إسهام صيني تجديدي أصيل، خاصة وأن الماركسية هي في الأساس نظرية ذات جذور غربية وضعية تؤمن بوجود قوانين موضوعية تؤطر حركة العلاقات الدولية وتحكمها١.

لكن الأهم من هذا التنظير "صاحب الرعاية الرسمية" كان هو ظهور عدة أنماط من المشاركات في مساعي بناء إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية تستعرض الورقة بعضا من نماذجهم في الجزئيات الثلاث التالية.

تميز الدراسة بين ثلاثة نماذج أو أنماط مختلفة من المشاركات في بناء إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية. يشترك النمط الأول والأخير في كونهما مشاركات من داخل الدائرة الأكاديمية الصينية ذاتها -وإن قام بالتعريف بهما صينيون أو غير صينيين ممن كتبوا عنهما باللغة الإنجليزية. أما النمط الثاني من أنماط المشاركة في بناء إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية فجاء من خارج الدائرة الأكاديمية الصينية، وعبرت عنه محاولات بعض الباحثين تقديم إسهام نظري في العلاقات الدولية بالاستعانة بمفاهيم ومرجعيات ثقافية صينية.

يجتمع النمط الأول مع **النمط الثاني** من حيث تصورهما إمكانية الجمع بين ما هو موجود وقائم في العلم من مناهج ومنهاجيات وبين احتياجات تأسيس وبناء إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية. أما النمط الثالث فيختلف عنهما اختلافا كبيرا، حيث يرى في العودة إلى مصادر صينية أصيلة ككتابات الفلاسفة الصينيين سبيلا لتقديم إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية. ترصد الدراسة فيما يلي في جزئية أولى أبرز ملامح النمط الأول، والذي تسميه بالنمط التوفيقي أو التكاملي، ثم تستعرض في جزئية ثانية نماذج لمشاركات من الخارج في تقديم إسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية تتوقف فيها عند عدد من الدراسات لباحثين غير صينيين استعانوا بمناهج وضعية وما بعد وضعية لتقديم إسهام صيني في العلاقات الدولية بغرض اختبار مقولات المنظورات الغربية الكبرى، وأخيرا تتوقف في جزئية ثالثة عند ملامح النمط الثالث من أنماط الإسهام النظري الصيني، والذي تسميه الدراسة بالنمط التقليدي.

1 Nele Noesselt, Revisiting the Debate on Constructing a Theory of International Relations with Chinese Characteristics, op cit, p. 433

١- إسهامات نظرية صينية في العلاقات الدولية: النمط التكاملي/ التوفيقي:

تبنى النمط الأول اقترابا تكامليا/ توفيقيا سعى من خلاله إلى التوفيق أو الجمع بين التصور عن النظرية والمعرفة وفق المرجعية الصينية وبين التصور عنهما وفق المرجعية الغربية، يتخفف هذا النمط من قبضة الماركسية الصينية ذات التوجهات السياسية بالعودة إلى إسهامات الفلاسفة الصينيين التقليديين[١].

تستعرض هذه الجزئية ثلاثة نماذج لإسهامات نظرية تندرج تحت نطاق هذا النمط التكاملي/ التوفيقي.

أ. نموذج Qin:

كان من بين أنصار هذا النمط التكاملي/ التوفيقي من يعرف نفسه باعتباره بنائيا مثل Qin الذي اقترح بأن يجعل من العلائقية relationality -وهو مفهوم هام في المجتمعات صاحبة الثقافة الصينية- أساسا فلسفيا ينهض عليه تصور جديد للعلاقات الدولية كبديل عن الرشادة rationality على نحو يعيد بناء مفاهيم العلاقات الدولية. يتميز مفهوم العلائقية من حيث تصوره العلاقات الدولية في حالة مستمرة من الحركة، فيجعل من العلاقات في ذاتها وحدة تحليله الأساسية، ويرفض القول بأن كل العلاقات قائمة ولابد على منطق الرشادة[٢] ويعتمد هذا المفهوم على "توازن العلاقات" كبديل عن "توازن القوى"، حيث توازن العلاقات بعضها البعض بحيث تضمن أن يظل بالعلاقات بين الدول وبعضها قدرا من الانسجام، حتى وإن تصادمت العلاقات في أحد أبعادها أو بعضها. تصلح نظرية العلائقية لتفسير العلاقات الصينية الفليبينية -على سبيل المثال، وهي التي يسودها التعاون الاقتصادي رغم الخلاف الكبير بين الدولتين حول الحقوق التاريخية للصين في بحر الصين الجنوبي.[٣]

ومن ثم تأسس هذا الطرح على تصورات أنطولوجية مغايرة عن الواقع الدولي وعملياته، ولكن لم يأت على صعيد المناهج بجديد، فقد أكد Qin على أهمية المنهاجية العلمية للحقل وعلى أهمية التواصل بين الدوائر الحضارية الغربية وغير الغربية، ووجد في البنائية منهجا كافيا

1 Nele Noesselt, Revisiting the Debate on Constructing a Theory of International Relations with Chinese Characteristics, op cit, p. 434
2 Emre Demir, op cit, p. 96, 97

٣ نقلا عن:

Pichamon Yeophantong, „Asian Perspectives“, in: Stephen McGlinchey, Rosie Walters and Christian Scheinpflug (eds.), op cit, pp. 117-١٢٤
Navnita Chadha Behera, op cit, pp. 92-116

لتحقيق هذا التواصل ولتقديم هذا التصور البديل عن العلاقات الدولية. ١ يركز إسهام Qin النظري على الإشكالية الصينية الأساسية المتمثلة في كيفية تحقيق الصعود السلمي للصين دون التعرض للمقاومة من أنصار الرؤى الواقعية ومؤيدي نظريات توازن القوى في العالم. يلعب هنا الإسهام النظري دورا في تأييد أهمية الصعود الصيني ومن ثم تدعيم المصالح الصينية وحقها في الصعود في عالم تكرس نظرياته استقرار الأوضاع على ما هي عليه، لكنه يلعب أيضا دورا في تفكيك الطرح الواقعي وتقديم تصور بديل عن إمكانية صعود القوى الكبرى دونما حروب وصراعات. لأجل هذا الغرض فهو لا يشتبك مع كل مفاهيم العلاقات الدولية، وإنما فقط يقدم بديلا عن بعض هذه المفاهيم جامعا في ذلك بين أطروحات فلسفية صينية وبين عناصر من المادية الجدلية والتاريخية. ومن ثم لا تتوقف جودة النظرية -في هذا الطرح- على قدراتها التفسيرية، وإنما تتوقف على جودتها الأيديولوجية وقدرتها على توجيه الفعل السياسي. وهو أمر يتسق مع الفهم البنائي لمعنى النظرية حيث التحيز هي مكون أساسي لأي نظرية، مهما ادعت غير ذلك، وحيث لا وجود مستقل للواقع عن الأبنية والهياكل الفكرية المتاحة لفهم هذا الواقع، ومن ثم تصبح نظريات مثل "نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات" و"السلام الديمقراطي" مجرد أمثلة على نظريات يبرز فيها هذا المكون الأيديولوجي[٢].

ب ـ نموذج فريق Tsinghua:

تندرج تحت هذا النمط التكاملي "المتوافق" مع علم العلاقات الدولية محاولات فريق Tsinghua وعلى رأسه Yan، ينسب Yan وفريقه أنفسهم إلى المدرسة الواقعية، ويؤمنون بعالمية العلم، ولكنهم يتصورون أن الفلسفة الصينية القديمة لديها ما يمكن أن تقدمه لهذا العلم بشكل متكامل مع مقولاته، ومن ثم لا تسعى مدرستهم إلى الاستقلال فعليا بمدرسة صينية في العلاقات الدولية - في تناقض صريح مع أطروحة Qin[٣]. ويستعين Yan بمناهج سلوكية في دراساته حيث تقوم دراساته على التحليل السببي واختبار الفرضيات وافتراض الحياد العلمي وقابلية النظريات للاختبار[٤]. كما يجري Yan وفريقه دراسات كمية، ويستدعون الخبرة التاريخية الصينية في حقب زمنية متفاوتة للتأكيد على مقولات الواقعية الجديدة التي أولت الأهمية الكبرى لعناصر القوة الصلبة. وقدم Yan تصنيفا اجتهاديا لإسهامات الفلاسفة الصينيين

---

١ راجع أيضا في مسألة مراحل الاهتمام بالتنظير الصيني في العلاقات الدولية:

Sudeep Kumar, op cit, pp. 24-٢٨

2 Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 11, 12

٣نقلا عن:

Linsay Cunningham-Cross, op cit

Emre Demir, op cit p. 97

4 Sudeep Kumar, op cit, p. 26

بحيث تتوزع مقولاتهم عن "الحكم الجيد للدولة والعالم" على مستويات تحليل الواقعية الجديدة الثلاثة؛ مستوى النظام الدولي، مستوى الدولة، ومستوى الفرد. ١ تظهر الخصوصية الصينية في طرحه بالأساس عند تأكيده على أهمية القوة السياسية في مقابل القوة الاقتصادية والعسكرية، وتأكيده على أهمية التفكير في النظام الدولي على اعتباره هيراركيا لا على اعتباره فوضويا، حيث تنتظم العلاقات بين الدول تنظيما هيراركيا لا تتساوى وحداته فيما بينها non egalitarian -تماما كما هي العلاقات داخل المجتمع الصيني ذاته على حد تقديره. يؤكد Yan في إسهامه النظري كذلك على أهمية الدور الذي تلعبه القيم الدولية والالتزامات الأخلاقية من جانب الدول في العلاقات الدولية. فعندما يستدعي الخصوصية الصينية، يظهر هذا الطرح وكأنه يجمع بين الواقعية والليبرالية، ويفضل البعض وصفه بـ "واقعية بخصائص صينية"٢. على أية حال، فإن هذا الطرح -ورغم التفاته غير المعهود لدى الواقعيين إلى القيم، يظل في تحليله الأخير راضياً تمام الرضا عما تتيحه له المناهج الوضعية السائدة في العلاقات الدولية من أطر ومستويات للتحليل يقدم من خلالها فهمه الصيني للعالم

ج ▪ نموذج Kim:

على صعيد الاستعانة بمناهج ما بعد وضعية، تقدم دراسة هامة لـ Youngmin Kim, Ha-Kyoung Lee, and Seongun Park٣ قراءة بنائية نقدية أو ما بعد وضعية للكونفوشية ذاتها، تتصور أن الكونفوشية ذاتها لا تمتلك لبا أو جوهرا أبديا eternal foundation، فما الكونفوشية إلا منتج لما تعتبره مجموعة من الاجتهادات البشرية هو الكونفوشية. تلفت الدراسة النظر إلى أن الكونفوشية خرجت في صور عديدة ولم تخرج على صورة واحدة ليس فقط لتعدد الأفهام والقراءات، وإنما أيضا لأنها كثيرا ما تعرضت للتوظيف السياسي؛ وليس أدل على هذا في تقدير أصحاب هذا الطرح من تلاعب حدث بالمحتوى السياسي للكونفوشية لصالح بناء دولة قوية -لا تلتف حول رابطة العشيرة، على عكس ما ارتأى لها كونفوشيوس- وإنما تلتف حول إمبراطور صاحب سيادة مطلقة -لا ينازعه فيها كونفوشيوس أو غيره.

هذا المنطق في قراءة الكونفوشية هو تجسيد فعلي للمنطق البنائي النقدي في فهم العلاقة بين الأطر الاجتماعية والثقافية وبين الواقع حيث الهويات تتبدل وتتشكل وفق تبدل الأطر الفكرية

1 Ibid, p. 26
2 Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 17
3 Youngmin Kim, Ha-Kyoung Lee, and Seongun Park, The Confucian Tradition and Politics, Oxford Research Encyclopedia, Politics, (Oxford University Press, 2019), online publication: (oxfordre.com/politics), July 2019, pp. 14-16

الحاكمة للتفكير فيها والتي هي منتج لسياق اجتماعي تحكمه علاقات القوة، وتحكمه في الحالة الصينية علاقة ثلاثية بين الكونفوشية والنخبة والدولة.

وتؤكد الدراسة - تأسيسا على مقولات البنائية النقدية أيضا- أن تنحية الكونفوشية "كثقافة محلية تقليدية معيقة للتقدم" جانبا لصالح ثقافة الحداثة الغربية في أوائل القرن العشرين كانت مسألة لها سياق اجتماعي وسياسي حيث تولدت عن استشعار الصينيين لحجم ضعفهم في مواجهة التفوق الإمبريالي الياباني والغربي، مع التأكيد على أن تنحية الكونفوشية من المجال العام لم تكن بالمسألة السهلة، فقد ظل هناك من يرفض هذه الفكرة ويقاومها. وتثير الدراسة مسألة توظيف الكونفوشية - وغيرها من الديانات الوضعية وغير الوضعية- لأغراض سياسية أو أيديولوجية، فتكشف الدراسة عن أن الكونفوشية أحيانا ما استخدمت خدمة لأغراض سياسية أو من أجل اكساب سياسات بعينها الشرعية الأخلاقية، وأحيانا ما استخدمت من أجل نقد سلطة بعينها، فأحيانا ما تم استدعاؤها سياسيا للكشف عن الممارسات الفاسدة للنظم السياسية، أو من أجل الحد من تأثير السلطة المركزية وإعادة توزيع السلطة بين عناصر المجتمع. كما تؤكد الدراسة أن الكونفوشية لم تكن أبدا واحدة في مجتمعاتها المختلفة اليابانية والكورية والفيتنامية وغيرها.١

لجأت الدراسة إذا إلى منهج بنائي لفهم كيفية استدعاء الكونفوشية إلى سياقات سياسية مختلفة. ويظل السؤال الذي تثيره مثل هذه الدراسات في الذهن: هل تعدم الكونفوشية خطوات منهجية محددة تضبط عملية فهمهما وتوظيفها في السياقات السياسية المختلفة؟ هل تعجز المناهج البنائية بكل ما تحمله من عناية بالسياقات الاجتماعية والثقافية عن الكشف عن جوهر ولب ثابت للحضارات والثقافات، أم أن المناهج الغربية حتى ما بعد الوضعية منها -وتحت تأثير المعرفية العلمانية التي لا تعرف الثابت- ربما هي غير مؤهلة بطبيعتها للكشف عن اللب الثقافي الثابت بقدر كشفها عن المتغير؟ ومن ثم إلى أي مدى يحمل التعبير عن الكونفوشية من مدخل بنائي نقدي تعبيرا صادقا عن الكونفوشية كما يفهمها أبناؤها؟

خلاصة القول في هذه الجزئية أن هذا النمط أظهر قدرة على التعايش مع تعددية منهاجية ومنهجية قائمة في الحقل -وضعية وما بعد وضعية- وقدم بالاستعانة بها كتابات صينية عن نظرية العلاقات الدولية، وعن القومية، والإثنية، والقيم الأخلاقية في السياسة الدولية، والعدالة، والأمن وغيرها ٢، ومع هذه التعددية المنهجية والمنهاجية والنظرية تأكدت صعوبة الحديث عن "نظرية" صينية في العلاقات الدولية، فهناك إسهامات نظرية عديدة ومتنوعة ومن مداخل مختلفة

1- Ibid, pp. 14-16
2- Ibid, p. 103

وبمستويات متفاوتة من التطور النظري. تستعرض الورقة فيما يلي نماذج لعدد من الدراسات التي استعانت بمناهج وضعية وما بعد وضعية من أجل تقديم إسهام صيني نظري في العلاقات الدولية من خارج الدائرة العلمية الصينية، وأبدت بدورها توافقا كاملا مع ما أنتجه الحقل من مناهج.

٢ـ إسهامات نظرية صينية توفيقية في العلاقات الدولية: مشاركات من خارج الدائرة العلمية الصينية:

تتنوع الإسهامات النظرية الصينية ذات النمط التكاملي/ التوفيقي القادمة من خارج الدائرة العلمية الصينية. يتعايش بعضها مع المناهج الوضعية، تسمح له هذه المناهج بالالتفات إلى أبعاد وظواهر ومساحات للتحليل لم تحظ بالاهتمام الكافي، فتسمح له بإعادة قراءة الواقع بحثا عن مساحات لتأثير الثقافة الكونفوشية والخصوصية الصينية وغيرها تغيب عن التحليل التقليدي في العلاقات الدولية. بينما يتعايش البعض الآخر من هذه الإسهامات مع مناهج ما بعد الوضعية فيكشف عن علاقات قوة كامنة خلف تراجع دور الكونفوشية كرؤية للعالم في المجال العام الصيني، وخلف العودة لاستدعائها وخلف أنماط هذا الاستدعاء وغيرها. فيما يلي بعض نماذج لإسهامات نظرية ذات نمط تكاملي، ولكنها نماذج دالة قدمها غير صينيين تتوقف هذه الجزئية عندها بالتحليل.

أ ـ على صعيد المناهج الوضعية:

على صعيد الاستعانة بالمناهج الوضعية تأتي دراستان عن أثر العامل الكونفوشي على العلاقات الدولية، في التاريخ وفي الواقع المعاصر.

يختبر Robert E. Kelly نظرية السلام الثقافي في الحالة الكونفوشية. يتساءل من خلالها حول قدرة الكونفوشية على إحلال السلام بين المنتمين إليها -على خلاف غيرها من الثقافات المشتركة والذين لم تقد أصحابها إلى سلام فيما بينهم كنظام الدولة المدينة في اليونان أو أوروبا المسيحية أو الوطن العربي المعاصر- وذلك بالنظر إلى التجربة التاريخية الصينية مع "السلام الطويل" الذي تمتعت به منطقة شرق آسيا فيما قبل الاختراق الغربي للمنطقة بحروب الأفيون في

النصف الأول من القرن التاسع عشر. فالنظريات الواقعية التي تتصور أن الحروب والصراعات هي الأصل في العلاقات، والنظريات الليبرالية التي تجعل من الديمقراطية والقيم الليبرالية أساسا لإحلال السلام بين الشعوب تبدو غير مناسبة لفهم الحالة الصينية، بينما العلاقات الآسيوية تنعم بالسلام بحكم هيراركية أبوية تحتل فيها الصين موقع الصدارة، لكن تسودها التزامات متبادلة بين هذا "الأب الصيني وأبنائه"، وتحكمها مفاهيم الاحترام لا مفاهيم الانصياع بدافع الخوف أو الإذعان، كما في مفاهيم مثل الـ bandwagoning (الانضمام إلى الركب) على سبيل المثال حيث يفترض الواقعيون أن تسعى الدول الضعيفة إلى الانضمام إلى جماعة من الدول تقودها دولة قوية في النظام الدولي. ويستخدم Kelly نظريته ليرفض منطق الربط بين ما هو ثقافي وما هو صراعي بشكل تلقائي حتمي، ويرى أن "الأثر السلمي للانتماء الثقافي" قد يقبل التعميم على حالات أخرى كما في فترات سابقة ممتدة في الحالة العربية الإسلامية أو حالة اليونان القديم، وإن كان لا يبدو قابلا للتعميم في الحالة المسيحية، ومن ثم يرى أن سعي نظرية العلاقات الدولية الحثيث إلى تعميم نتائج أبحاثها المستندة إلى الجذور التاريخية والفلسفية الغربية يعميها عن حالات بخصوصية الحالة الكونفوشية أو غيرها.

تختلف العلاقات الكونفوشية - وفق Kelly أيضا- في داخل الدائرة الكونفوشية بطبيعة الحال عن العلاقات خارج الدائرة الكونفوشية، حتى أن تحويل الدول الأخرى إلى الكونفوشية بالقوة يبدو كشكل من أشكال الاستخدامات المشروعة للقوة في الطرح الكونفوشي. ومن ثم تشير النظرية إلى الحاجة إلى التمييز بين السلوك الكونفوشي في مواجهة المعارضين في الداخل وبينه في مواجهة غير الكونفوشيين في الخارج، لكن هذا في ذاته هو أحد ملامح هذا الإسهام النظري حيث يؤكد على أهمية تجنب التعميمات والتمييز بين مستويات للطرح النظري.[1]

تجيب مثل هذه الدراسات على سؤال هام عن أهمية الإسهام النظري غير الغربي يتساءل عن ذلك الذي يمكن لغير الغربي أن يقدمه مما لا يعرفه الغربي بالفعل نتيجة إسقاطه لخبرات شعوب وحضارات أخرى. فلربما يكون ما لدى غير الغربي ليقدمه هو فهمه لذاته فهما تعجز النظريات والمفاهيم الغربية عن استيعابه. ولكن بالتأكيد ليست هذه هي المنفعة الوحيدة، فهو يقدم - كما في هذا الطرح- تحليلات قد تفيد في فهم واقع شعوب أخرى لا يلتفت الطرح الغربي - خاصة الوضعي منه- كثيرا إلى واقعها ولا ينشغل بخصوصياتها بحكم عدم انشغاله بثقافة أو تاريخ هذه الشعوب ونماذجها الفكرية والفلسفية!

1 Robert E. Kelly, "A 'Confucian Long Peace' in pre-Western East Asia?", European Journal of International Relations, 18 (3), 2011, pp. 407-٤٢٣

يعنينا بالأساس في دراسة Kelly كيف أسس نظريته عن "السلام الثقافي" من خلال اختبار مجموعة من الفرضيات حيث اختبرها في إطار تاريخي مقارن من خلال إحصائيات مدعومة بالتحليل الكيفي. ضبط Kelly نظريته من خلال استعراض لتاريخ العلاقات الكونفوشية-الكونفوشية، ومن خلال استعراض للعلاقات الكونفوشية-غير الكونفوشية في الفترات التاريخية ذاتها، ومن خلال استبعاد متغيرات مؤثرة كعوامل القوة أو الضعف الصينية بتأكيده على أن الصين كانت تتمتع بقوة كبيرة مقارنة بجيرانها وأن هؤلاء الجيران كان لديهم من الموارد ما يغري الدول القوية في محيطهم لغزوهم - ومن ثم دحض النظريات الواقعية في تفسير حالة السلام، وبمقارنة الحالة الكونفوشية بغيرها من الثقافات بحث Kelly إمكانية تعميم نظريته ليصل إلى أن النظرية غير قابلة للتعميم وأن متغيرات أخرى قد تلعب أدوارا مختلفة[1]. ومن ثم لم يخرج Kelly فعليا عن المنهاجية الوضعية، حيث يتم اختبار صحة فرضيات بعينها بعرضها على الواقع، وإن كانت الدراسة تهتم بموضوع ما كانت لتهتم به لولا تأثير الاهتمام بالأبعاد الثقافية والحضارية، ولولا تأثير المراجعات التي فتحت الطريق أمام دراسة القيم في العلاقات الدولية والتفتت إلى تاريخ الشعوب بحثا عن إضافات تنظيرية في حقل العلاقات الدولية، موضوعات مؤثرة وهامة لم يكن لها وجود من قبل في الدراسات الوضعية التقليدية في الحقل. يمكن تصنيف دراسة Kelly كدراسة بنائية وضعية.

تحت هذا التصنيف أيضا -أي المنهاجية الوضعية- تأتي دراسة ثانية أجراها Lukas Filler على عدد من الطلبة الصينيين في مجموعة من الجامعات الصينية المرموقة بحثا عن أثر الكونفوشية على رؤيتهم عن العلاقات الدولية. خلص Filler إلى أن أغلبهم أكثر تأثرا في تصوراتهم عن الضوابط الأخلاقية للجوء إلى استخدام القوة العسكرية في العلاقات الدولية بالمنطق الواقعي الصراعي عن القيم الأخلاقية الكونفوشية الداعية إلى التسامح، وأكثر تأثرا بمنطق الدفاع عسكريا عن المصالح الوطنية للدولة على الرغم من تأثرهم ببعض القيم الكونفوشية خاصة تلك المتعلقة بحماية المدنيين، كما أظهر المبحوثون تمييزا واضحا بين الضوابط الأخلاقية التي يلقونها على عاتق دولتهم في مقابل تلك التي يلقونها على عاتق الدول الأجنبية.٢ هنا أيضا يظهر الاهتمام بالهوية والقيم الثقافية -كموضوع جديد لم تهتم به الدراسات

1 Ibidf, pp. 407-4٢٠

2 Lukas Filler, Chinese Views of the Role of Morality in International Relations and the Use of Force, Doctoral Thesis, Department of War Studies, School of Social Science and Public Policy, King's College, London, United Kingdom, September 2016

الوضعية التقليدية- ولكن بمناهج وأدوات وضعية تقليدية كالاستبيان والتحليل الإحصائي لاختبار مدى مصداقية مقولات واقعية تقليدية ربما أكثر منها اختبار لماهية المقولات الكونفوشية ومصداقيتها.

تكشف دراسة Filler وLukas عن الاهتمام الغربي بمساحات من التأثير للهوية الثقافية والحضارية الصينية لا تلتفت إليها دراسات العلاقات الدولية التقليدية غالبا.

ب ـ على صعيد المناهج ما بعد الوضعية:

من اقتراب منهجي نقدي يحمل عنوان الـ reconstructive engagement (منهج الاشتباك من أجل إعادة تشكيل العلاقات)، تعقد دراسة لـDottin مقارنة بين الفلسفة/ المعتقدات الدينية الصينية والفلسفة الأفريقية على تنوع روافد كل منهما بهدف تدعيم أواصر التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري بينهم بالكشف عن مشتركات ثقافية بينهم. وهو التفات في غاية الأهمية إلى محورية الأبعاد الثقافية والحضارية في بناء العلاقات المعاصرة بين الدول وتوجيهها. يكشف هذا الاقتراب عن مساحات تتلاقي فيها الثقافة الصينية مع الثقافة الإفريقية كما في مفاهيم مثل الجماعة أو الذات الفردية أو الانسجام، واحترام الأجداد. [١]

ويبدو من المهم ملاحظة كيف أن هذا الاقتراب المنهجي المسمى بالـ reconstructive engagement يندرج في الأصل تحت بند الأدوات النقدية للاتصال والحوار التي أرساها Habermas ونقلها Linklater إلى سياق العلاقات الدولية بغية أن يصل البشر إلى اتفاق حول مبادئ دولية مشتركة من خلال حوار "تنفتح فيه الذات الثقافية على النقد من زاوية نظر الآخر"٢. ورغم ما يحمله المنهج من اعتراف بتنوع الذوات الحضارية وأهمية الانفتاح على الحضارات الأخرى بحثا عن مساحات تقارب ومساحات يمكن إخضاعها للمراجعة الذاتية، إلا أن المنهج يفرض تساؤلا حول مدى ملاءمته لاستيعاب خصوصيات ثقافية وحضارية غير غربية، فآلية الحوار الثقافي التي يعبر عنها هي آلية تقع في صميم المرجعية المعرفية العلمانية لفهم الواقع؛ تنتصر للمنطق الذي يقبل بإمكانية إخضاع المبادئ الأساسية لحكم العقل والمنطق

1 Paul A. Dottin, Sino-African Philosophy: A Re-"Constructive Engagement", Comparative Philosophy Volume 10, No. 1 (2019), pp. 38-66, p. 40-56

2 Andrew Linklater, 'The Ahievements of Critical Theory', in Steve Smith, Ken Booth and Marysia Zalewski (eds.), International Theory: Positivism and Beyond (Cambridge: Cambridge University Press 1996), pp. 279–98.

والإقناع بحثا عن قيم مشتركة يتفق عليها الجميع[١]، ويفترض في هذه الآلية أن تقود من التعرف على الآخر إلى حركة ديناميكية من التحول المشترك- mutual transformation على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي - Michel Feher ، وذلك كبديل عن البحث عن تعريف ستاتيكي لما هو أخلاقي إنساني مشترك.[٢]

تبدو مثل هذه الآليات في التعرف على الحضارات والثقافات غير الغربية مليئة بتحيزات لفهم غربي علماني لمعنى الثقافي والحضاري وحتى الديني، ومن ثم تفرض تساؤلا عن مدى ملاءمتها حقا لاستيعاب خصوصيات ثقافية وحضارية غير غربية وعن سر غياب أدوات نظر واقترابات ذات خصوصية كونفوشية تطرح من خلالها النظرية الصينية محتوى الكونفوشية على العالم وتقدمه إليه.

لا يقلل هذا من شأن ما يولده الالتفات إلى الأبعاد الثقافية والحضارية في نظرية العلاقات الدولية من مداخل منهجية جديدة - كالـethnography أو الـreconstructive engagement أو الـ decolonial approach[٣] وغيرها- قد تحمل بالفعل الكثير من الفائدة لأصحاب الخصوصيات الثقافة والحضارية، ولكن يبقى العثور على إجابة على الأسئلة عن المناهج ذات الخصوصية الثقافية والحضارية وسر غيابها وعن مدى كفاية المناهج ذات المرجعية الوضعية وما بعد الوضعية للتعبير عن هذه الخصوصية شرطا لتغيير حقيقي في موازين القوى داخل الحقل لصالح مشاركات حقيقية من دوائر غير غربية. فحتى وإن احتفى الكثيرون ببناء الإسهام النظري الصيني لجسور من التواصل مع الإسهامات النقدية ما بعد الوضعية والإسهامات غير التقليدية في الحقل، واعتبروا ذلك السبيل الأمثل لحماية تلك المحاولة الوليدة لتقديم إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية من الوقوع في خطأ ادعاء العالمية والاستثنائية - والذي طالما وقعت فيه النظريات ذات المرجعية المعرفية الوضعية[٤]، يظل هناك فارق هام بين الترويج للخصوصية دفاعا عن الحق في الاختلاف والتمايز وبين الترويج للخصوصية بدافع الاستعلاء وفرض الذات على الآخرين، والأول هو حق أصيل لكل صاحب ثقافة وحضارة في حقل تدعي مراجعاته

1 Giorgio Shani, "Toward a Post-Western IR: The Umma, Khalsa Panth, and Critical International Relations Theory", International Studies Association, 10, 2008, p. 725

2 Andrew Linklater, The Changing Contours of Critical International Relations Theory, in: Richard Wyn Jones (ed.), Critical Theory and World Politics, (Boulder, Colo. : Lynne Rienner Publishers, 2001), p. 26, 27

راجع على سبيل المثال: 3

Yunana Ahmed, Political discourse analysis: a decolonial approach, Critical Discourse Studies, published online: April 2020, link: https://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/17405904.2020.1755707

4 Emre Demir, op cit, p. 101, 102

ترحيبها بكافة أشكال التعدد والتنوع. وهي ملاحظة هامة تنقلنا إلى الجزئية الثالثة والأخيرة من هذا الجزء من الدراسة.

٣- الإسهامات النظرية الصينية في العلاقات الدولية: النمط التقليدي:

يطلق البعض على النمط الثاني من أنماط الإسهامات النظرية من داخل الدائرة العلمية الصينية وصف "النمط التقليدي" بحكم استعانته بمقولات الفلسفة الصينية القديمة -بالأساس كونفوشيوس- من أجل التأسيس لطرح صيني في العلاقات الدولية[١]. تستعرض هذه الجزئية بعضا من أبرز ملامح هذا النمط وبعضا من القيود والفرص التي تقف أمامه.

أ - نموذج معرفي صيني ورؤية بديلة للعالم عن الرؤية الغربية:

وتعتبر دراسة Zhao دراسة رائدة في هذا المجال. [٢] يطرح Zhao أهمية فهم العلاقات الدولية من خارج إطار الدول القومية بالكلية، حيث العالم في الطرح الصيني التقليدي لا يفهم إلا كوحدة واحدة oneness يتحقق في داخلها التنوع والتعدد، وتتعايش ولا تنصهر في داخلها الاختلافات لصالح التنميط sameness[٣].

ومن ثم يقوم تصور بديل للعالم على أساس الرؤية الكونفوشية للعالم -التي وجدت تاريخيا تطبيقا إداريا لها في نظام الجزية the tributary system، وهي الرؤية التي يجسدها مفهوم الـ Tianxia كما سبقت الإشارة. يكشف المفهوم عن إمكانية تصور شكل بديل للنظام الدولي وللعلاقة بين وحداته يجمع بين معنيي التناغم harmony والصعود السلمي[٤] . ولا تعتبر الدولة وفق هذا المفهوم هي وحدة التحليل الأساسية، وإنما العالم، وتحتل موقع المركز في هذا العالم قوة تستمد شرعيتها من قيمها الأخلاقية، لا من قوتها المادية، وهو نظام يشارك فيه البشر لا الدول.

ويلاحظ أن مسألة استدعاء نموذج الـ Tiaxnia إلى الواقع المعاصر من أجل تطبيقه فيه أو حتى مقارنته به ليست بالمسألة التلقائية، حيث يخضع هذا الاستدعاء لاجتهادات المنظرين[٥].

ويدفع هذا النمط "التقليدي" بضرورة حماية خصوصية هذه الرؤية وحقها في التعبير عن اختلافها وفهمها البديل للواقع كغيرها من الرؤى غير الغربية ذات الخصوصية، كما يدفع بأن المؤسسات الدولية في هذا النظام البديل تحمل تعبيرا أكثر صدقا عن التنوع والتعدد عن ذلك

1 Nele Noesselt, Revisiting the Debate on Constructing a Theory of International Relations with Chinese Characteristics, op cit, p. 434
2 Sudeep Kumar, op cit, p. 28
3 Emre Demir, op cit, p. 98
4 Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit,p. 17, 18
5 Ibid, p. 19, 20

القائم في المؤسسات الدولية المعاصرة حيث تكون المشاركة في هذه المؤسسات للشعوب لا للدول. وعموما يظل هناك اختلاف واضح بين الـ tiaxnia وبين الحوكمة العالمية حيث يتمحور الـ tiaxnia حول إمكانية التعايش السلمي بين الشعوب والحضارات -لا بين الدول، كما يختلف عن الواقعية التي ترى أن الصراع هو المنطق الوحيد الحاكم لحراك الدول على سلم القوى الدولية. تتداخل في هذا الطرح الأبعاد المادية مع الأبعاد غير المادية، فلا ينفصل "عالم المادة (الأرض) عن عالم الروح (قلوب الشعوب) عن عالم السياسة (المؤسسية الدولية)"، وتلعب فيه القيم دورا أساسيا بحكم إيمانه بأن شعوب العالم تتشارك كلها في تقدير أهمية العوامل القيمية والثقافية وأهمية وجود ضوابط أخلاقية متفق عليها للسلوك الدولي، حتى وإن ادعت بعض النظريات التقليدية السائدة في الحقل إمكانية التغافل عن هذه العوامل وعدم محوريتها في تحليل العلاقات الدولية المعاصرة[١]. يجد هذا الطرح مفهوم "الدولة القومية" عاجزا عن استيعاب إدراك الدولة الصينية لذاتها، فهي "دولة حضارية" "لا تعتمد على التوسع العسكري ولا تعتمد على استيراد نماذج التنمية من الخارج، وإنما تسترشد في خياراتها الاستراتيجية بخصوصيتها الثقافية وتجربتها التاريخية".

تشير مثل هذه الدراسات إلى تأثير -تتجاهله النظريات السائدة في الحقل- للكونفوشية على الممارسة الدولية الصينية، والسياسة الخارجية الصينية، كما تثير العديد من الدراسات مسألة القيم الكونفوشية وأهميتها المستمرة كمرجعية أخلاقية للمجتمع الصيني؛ قيم من قبيل فضيلة احترام العادات والتقاليد وقيمة التعليم والتعلم، وهي القيم التي تجد طريقها في الطرح الكونفوشي من الفرد إلى النظام الدولي والعلاقات الدولية، فيقع إصلاح الفرد في قلب التصور الكونفوشي عن إصلاح العالم وجعله أكثر أخلاقية أو إنسانية[٢].

هذا وتجدر الإشارة إلا أن مثل هذه الكتابات عن أهمية استعادة الوعي بالذات الحضارية الصينية ليست بجديدة، وإنما ظهرت من قبل في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كمحاولة من النخب الفكرية الصينية للحفاظ على وحدة الأراضي الصينية واستقلالها، ومن ثم تعكس هذه الكتابات فعليا اهتماما ممتدا بشكل "الدولة الصينية الحديثة" وبملامح "النموذج الصيني" المنشود وبحدود دوره في العالم[٣]. يظهر من خلال هذه الدراسات كيف أن الاهتمام بالعلاقات الدولية لا ينفصل عن الاهتمام بالصين ذاتها وحالها ومآلاتها المستقبلية. وأن الرؤية

1 Sudeep Kumar, op cit, p. 27

2- Melisa Samaruga, The Influence of Confucianism in Chinese Foreign Policy (1971-2013), University of International Relations, 2014, p. 14

3- Nele Noesselt, Revisiting the Debate on Constructing a Theory of International Relations with Chinese Characteristics, op cit, p. 435

الصينية عن العلاقات الدولية وكيف يكون شكلها الأمثل لا تنفصل عن الرؤية الصينية عن الذات الحضارية الصينية وعلاقتها مع الآخر. وأن فهم الرؤية الصينية في انعكاساتها على السياسة الخارجية الصينية هام، ولكن فهم التصور الصيني عن شكل أمثل للعلاقات الدولية هام أيضا، خاصة وأنه يحدث قطيعة مع التصور الغربي عنها على الأقل من حيث مركزية دور القيم فيه ونفيه لسمت الفوضوية عن العلاقات الدولية إلى حد يدفع معه البعض بأن الإسهام النظري الصيني في العلاقات الدولية يمكنه "إعادة بناء العالم بلغة ونظرية صينية"[١].

ورغم تشابه المقولات حول الـ Tiaxna، إلا فإن النمط التقليدي يختلف بوضوح عن النمط التكاملي من أنماط الاهتمام بنظرية صينية في العلاقات الدولية، لا يتفرد النمط التقليدي باستعانته بكتابات فلسفية صينية تقليدية وقراءة تاريخية فحسب، ولكنه يتميز عن النمط التكاملي/ التوفيقي في رفضه للنموذج المعرفي الوضعي الغربي، ومن ثم لمنطلقاته الوجودية، فهو يشير صراحة إلى أنه يقدم بديلا معرفيا للمعرفية الغربية، خاصة الوضعية منها، حيث لا مجال للحديث عن علاقات دولية بلا قيم وحيث نظام الدول هو مجرد تصور غربي عن العالم يمكن منافسته بتصورات أخرى.

يندرج تحت هذا النمط كذلك إسهام كل من Yiwei و Xuqing حيث يؤمنان بالاستثنائية الصينية Chinese exceptionalism، ويتصوران أن الإسهام النظري الصيني في العلاقات الدولية لا يتسق مع الطرح الغربي ولديه إسهام متفرد يتمحور حول المفهوم الصيني للعالمية القائم على الاحترام والتعايش والمثالية الأخلاقية والانسجام harmony. [٢]

ب ـ قيود وفرص هذا النموذج الصيني البديل:

يمتزج إذن في هذا الإسهام التقليدي المدخل التاريخي مع القيمي مع الفلسفة لينتجوا معا إسهاما نظريا صينيا ذا خصوصية عن النظام العالمي أو العالم أو العالمية، كما تتنوع المسميات ووجد البعض في محاولات هذا النمط من أنماط الإسهام النظري الصيني دليلا على أن النظريات "ما بعد الغربية" لم يعد يكفيها أن "تدور في الفناء الخلفي للعلاقات الدولية"؛ أي لم يعد يكفيها أن يقتصر دورها على اختبار كفاءة ومصداقية نظريات العلاقات الدولية الغربية في سياقات غير غربية من عدمها، وأنها يجب أن تكون لها أهمية قائمة بذاتها. تتصور لهذا Noesselt أن الإسهامات النظرية الصينية في العلاقات الدولية قطعت شوطا في التأسيس الفلسفي يسمح لها بالفعل بالتواجد في الحقل بشكل مستقل عن جدالاته، وحتى بشكل مستقل عن جدالات فيما وراء النظرية حول الحاجة إلى تنظير غير غربي في العلاقات الدولية، ربما تكون قد تأثرت بها

1- Emre Demir, op cit, p. 99
2- Ibid, p. 101

دعوات تأسيس نظرية صينية في العلاقات الدولية في بدايات ظهورها وتفاعلت معها بدرجة أو بأخرى، ولكنها أصبحت مستقلة عنها بما قدمته من إسهام[١]

ويبدو من المهم الإشارة إلى أن Noesselt ترى أن القلة من الجهود التنظيرية الصينية هي التي تسعى إلى البحث في التراث الصيني لتقديم إسهام صيني ذي خصوصية، بينما تقيم الغالبية العظمى من هذه الجهود جسورا مع التنظير ما بعد الوضعي/ الانعكاسي في العلاقات الدولية. وتفسر Noesselt هذا التقارب "بغياب الأسس الثابتة والموضوعية للحكم على جودة النظرية وقياس صحتها" في هذه المساحة البحثية ما بعد الوضعية، ومن ثم تجد الإسهامات غير الغربية في اتصالها بالتنظير ما بعد الوضعي في العلاقات الدولية مساحة للحركة تفتقدها في نطاق النظريات التقليدية. ففي مساحة البحث ما بعد الوضعي تتخلى الدراسات عن "معايير الجودة النظرية التقليدية في الحقل"٢؛ معايير تجعل الواقع حكما على جودة النظرية، معايير من قبيل القدرة على تقديم تفسير سببي للظاهرة محل الدراسة أو القدرة على صياغة فرضيات محكمة ذات متغيرات محدودة يمكن التثبت إمبريقيا من صحتها، إلخ.. تظهر الدراسات ما بعد الوضعية في المقابل مرونة كبيرة في التعامل مع الواقع حيث تسعى للكشف عن علاقات القوة الكامنة خلفه والتي أدت إلى تشكله على هذا النحو فتقبل بنقده وتوجيهه نحو التغيير، إلخ، كما تقدمت الإشارة.

وتثير مسألة محدودية الإسهام الصيني صاحب المرجعية التراثية عددا من المسائل، حيث يظهر هذا النمط بشكل أكبر في دراسات مكتوبة باللغة الصينية، ومن ثم -وعلى الرغم من أنه صاحب المراجعات المعرفية والأنطولوجية الأكبر يقدم إسهاما على صعيد التأسيس الفلسفي فيما وراء النظرية- تظل أصداء تأثيره على حقل العلاقات الدولية أكثر محدودية٣، حتى أننا لا نعرف عن مناهجه أكثر من كونه يستعين بكتابات الفلاسفة الصينيين وبتاريخ الإمبراطورية الصينية في إعادة تصور العلاقات الدولية، فتظل أسئلة كثيرة بلا إجابة: هل هناك منهج للقراءة في كتابات هؤلاء الفلاسفة وهذا التاريخ؟ ما هي ضوابط هذه القراءة ، خاصة في ظل عدم وجود اتفاق حول "قدسية" الطرح الكونفوشي من عدمها[٤]؟ هل طرح مثل هذه الأسئلة يحجر على حق هذه الإسهامات في الوجود داخل الحقل؟ أم أن الإجابة عليها شرط أساسي لكي تفسح هذه الإسهامات لنفسها مكانا داخله؟

1- Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 4,5
2 - Ibid, p. 7
3- Linsay Cunningham-Cross, op cit, p. 24
4 -Keqian Xu Guoming Wang, Confucianism: The Question of its Religiousness and its Role in Constructing Chinese Secular Ideology, Journal for the Study of Religions and Ideologies, vol. 17, issue 50 (Summer 2018)

لا شك أن إسهاما ذا مرجعية حضارية تراثية يواجه صعوبات عديدة في اختراق حقل العلاقات الدولية. لا تقف اللغة وحدها حائلا أمام استيعاب منطلقاته -وإن كانت حائلا كبيرا. ولكن تظل الصعوبة الأكبر في ما يحمله هذا الإسهام من نوع مختلف من المعرفة، من منطق مختلف من التفكير في العلم والعلمية١، إذا كانت المراجعات ما بعد الوضعية قد أفسحت المجال أمام تصور بدائل للحكم على جودة النظرية عن مجرد إمكانية اختبارها في الواقع بحكم تصورها وظيفة بديلة للنظرية تتمثل في نقد الواقع ومحاولة تغييره٢، فإن على أصحاب هذه الإسهامات ذات المرجعية التراثية أن يظهروا بدورهم من النضج المنهاجي والمنهجي ما يؤهلهم للمشاركة في عملية إنتاج "العلم" من منهاجيات ومرجعيات معرفية ذات خصوصية، وحتى ذلك الحين ستظل إسهامات غير غربية تستعين بمناهج غربية -وضعية أو ما بعد وضعية- هي الأكثر حظا في حقل العلاقات الدولية، وهي إسهامات تشارك في مراجعات الحقل الأنطولوجية بالأساس، دون مشاركة حقيقية منها في مراجعاته معرفيا أو منهاجيا.

1- Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian, Editors' Introduction, in: Hugh C. Dyer and Leon Mangasarian (eds.), The Study of International Relations: The State of the Art, (New York: Palgrave Macmillan in Association with Millenium: Journal of International Relations, 1989), p. XVii

2- Mohamed Hamchi, „IR Fourth Debate: Pluralistic or Hegemonic? Limitations to Bridging the Gap", Algerian Review of Security and Development, Issue 1, July 2011, p. 215

خـاتـمة :

أولا :

يبرز في نطاق الإسهامات الصينية النظرية في العلاقات الدولية من داخل الدائرة الصينية نمطان أساسيان، **نمط تكاملي ونمط تقليدي، كما برز من خارجها النمط التكاملي.** اشتركت نماذج الإسهامات النظرية المرصودة في مسعى تقديم طرح مختلف على صعيد توصيف الواقع الدولي والعمليات الأساسية فيه، واشتركت في الالتفات إلى أبعاد ثقافية وقيمية في العلاقات الدولية، لكن بينما يتميز النمط الأول باستعانته بمناهج غربية قائمة في العلم -وضعية أو ما بعد وضعية، ومن ثم يتشارك الإسهام فيه باحثون صينيون وغير صينيين، يتميز النمط الثاني باستعانته بمصادر بديلة للمعرفة كالفلسفة السياسية الصينية، وينفرد الباحثون الصينيون بالإسهام في نطاقه[١]. وقد اعتبر البعض أن هذا النمط التقليدي من الإسهام النظري الصيني قد أصبح قادرا على الاستقلال في نطاق نظرية العلاقات الدولية بما يقدمه من إسهام ذي خصوصية ثقافية، كما لاحظنا في تقييم Nooselt لما أنجزته الإسهامات النظرية الصينية ذات المرجعية التراثية في العلاقات الدولية. وربما تفسر مسألة تنوع أنماط الإسهام النظري الصيني غياب الاتفاق حول مسمى الإسهامات النظرية "الصينية" في العلاقات الدولية، فبينما يصفها البعض بالصينية، يصفها البعض بالكونفوشية. [٢]وبينما تنتقد Ling تسميتها بالإسهامات "النظرية الصينية" في العلاقات الدولية معتبرة أن كلا من "الصينية" و"العلاقات الدولية" تحصر الإسهام النظري في إطار ويستفالي ليس عليه بالضرورة أن يقبله، يرى Ren أن وصف الإسهام بالصينية يساعده على التواجد بشكل أفضل في حقل صار متمحورا حول منطق القومية.[٣]

ولعل هذا التنوع في الاقترابات من مسألة تأسيس إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية هو الذي دفع البعض إلى الحديث عن "نظريات" صينية في العلاقات الدولية تتفاوت في مناهجها ومنهاجيتها، تجتمع في بعض تصوراتها عن الحقل، فتؤمن جميعها بأهمية القيم على سبيل المثال، ولكنها لا تجتمع جميعها في مرجعيتها المعرفية -حول مصادر التنظير في العلاقات

1- Linsay Cunningham-Cross, op cit, pp. 14-16

2- Emre Demir, The Chinese School of International Relations: Myth or Reality?, All Azimuth, Vol. 6, No. 2, Jul 2017, p. 96

Review article of: Yongjin Zhang and Teng-chi Chang (eds.), Constructing a Chinese School of International Relations: Ongoing debates and sociological realities (Oxon and NY: Routledge, 2016).

3- Ibid, pp. 96- ٩٩

الدولية- ولا في تصوراتها الأنطولوجية عن الحقل، فبينما بدا البعض راض عن النظام الدولي في صورته القائمة مع الإشارة إلى أهمية الالتفات إلى أبعاد تغيب عن التحليل الغربي أحيانا، تصور البعض إمكانية إعادة تخيل النظام العالمي في شكل مغاير عن شكل نظام الدول القومية الذي هو منتج لمخيلة سياسية وتجربة تاريخية غربية لا تستوعب التصور الصيني الأصلي عن الدولة صاحبة البعد الحضاري[1]. هذا الأخير هو الذي يحمل إمكانات تحد حقيقي للهيمنة الغربية على حقل العلاقات الدولية، وربما يكون هو الأكثر استحقاقا بصفة "ما بعد الغرب". لا ينفي هذا أن كل الإسهامات النظرية التي استعرضتها الورقة قد حملت درجات متفاوتة من الإضافة والتجديد بحكم التفاتها إلى أبعاد ثقافية وقيمية لم تحظ باهتمام النظريات التقليدية السائدة في الحقل، لكنها فعليا -باستثناء ما ينتمي منها إلى النمط التقليدي- استعانت في الكشف عن هذا الجديد وهذه الإضافة بمناهج ومنهاجيات غربية -وضعية أو ما بعد الوضعية.

ويلاحظ عموما أن الأدبيات المنشغلة بالبحث في إسهام نظري صيني في العلاقات الدولية لم تعدم الانفتاح على مناهج ومنهاجيات غربية - وظفتها لتفكيك المفاهيم وإعادة بناء تصورات عن الواقع، والترويج لنظريات جديدة، الخ.. ، لكن العكس لا زال غير صحيح، لم يظهر من بين الإسهامات النظرية الصينية محل الدراسة -بنمطيها- من قدم مناهج ومنهاجية ذات خصوصية صينية لباحثي العلاقات الدولية، ربما لأن مثل هذه الإسهامات لم تصادف الاختيار شبه العشوائي للعينة محل الدراسة، ولكن ربما أيضا لأن الإسهامات النظرية الصينية حين وظفت هذه المناهج والمنهاجيات لم تهتم بترجمة ما كتبته عنها ولم تهتم بشرحها للباحث غير الصيني، ومن ثم ظلت منطقة معتمة بالنسبة لباحث لا يجيد الصينية.

ثانيا :

إن مشاركة حقيقية في التنظير من مصادر ومرجعيات غير غربية مرهونة بتحطيم أسطورة أن غير الغربي ليس لديه إضافة ليقدمها إلى حقل العلاقات الدولية، فلو لم يقدم غير الغربي إلى حقل العلاقات الدولية سوى فهمه الخاص للعلاقات الدولية ومفاهيمها وفواعلها لكفته في مواجهة نظريات وضعية سادت وسيطرت على الحقل تدعي أنها الأكثر قدرة على توصيف الواقع وتفسيره، فما بالنا وإن قدم رؤيته عن كيفية إعادة التفكير في الواقع الدولي على نحو يجعله أكثر تعددية وتنوعا، وعدالة وتناغما، وما بالنا وإن قدم حلولا لمشكلات في الواقع أو اقتراحات للخروج به من أزماته القيمية والمؤسسية وغيرها؟ وإذا كانت للإسهامات الغربية الوضعية أهمية

1- Emre Demir, op cit, p. 101, 102

ووظيفة ربما لا ينازعها فيها أحد حيث الوصف الدقيق والتحليل السببي المادي للظواهر الدولية، وإذا كانت للإسهامات الغربية ما بعد الوضعية مهمة ووظيفة متميزة تتمثل في الكشف عن مواطن التحيز والتهميش الناتجة عن اختلالات توازنات القوة الاجتماعية في حقل العلاقات الدولية واقعا ونظرية، فإن للإسهامات الحضارية غير الغربية مهمة ووظيفة لا ينازعها فيها أحد فقد تدفع الواقع دفعا نحو التغيير إن هي نجحت في طرح تصورات بديلة جادة حول غاية هذا التغيير وصورته.

ثالثا:

إن مشاركة حقيقية في التنظير من مصادر ومرجعيات غير غربية مرهونة أيضا بتحطيم أسطورة "المعيار الأكاديمي العالمي لما هو علم"، فبدون كسر هذا المعيار يظل الإسهام غير الغربي غالبا مستبعدا من دائرة العلم إما بحجة أنه معياري أو بحجة أنه لم يرتق بعد إلى مستوى التنظير أو بحجة أنه متحيز لمرجعية تراثية بعينها[١]، إلخ... وإذا كان الإسهام النظري ما بعد الوضعي في الحقل قد التفت بالفعل إلى هذه المسألة وأبدى انفتاحا على أصوات غير غربية وتعريفات غير تقليدية لمعنى النظرية ووظيفتها، إلا أن استيعاب الإسهام النظري غير الغربي بالكلية داخل المناهج والمنهاجية ما بعد الوضعية وحدها دون انفتاح حقيقي على ما يقدمه هذا الأول من مناهج ومنهاجية هو أمر يحتفظ بكثير من ملامح التحيز للمركزية الغربية التي قام الإسهام النظري ما بعد الوضعي داعيا لتخليص العلم منها ابتداء، فلا يعقل أن تكون الغاية من كل هذه المراجعات هو استبدال حالة من اللحاق بالغرب الوضعي ونظرياته ومناهجه بحالة من اللحاق بالغرب ما بعد الوضعي ونظرياته ومناهجه. تتفق هذه الخلاصة مع ما لفتت إليه النظر المراجعة ما بعد الوضعية في حقل العلاقات الدولية ذاتها من فارق هام بين أن تكون "النظرية أداة للتحليل" وبين أن تتحول النظرية إلى "أداة لممارسة القوة في العلاقات الدولية" فتخفت أصواتا وتخرس أخرى في مقابل علو وصراخ أصوات ثالثة. [٢]

1- Amitav Acharya, Barry Buzan, "Why is there no Non-Western International Relations Theory? An Introduction", International Relations of the Asia-Pacific, Volume 7, Issue 3, September 2007, p. 291

2- Nele Noesselt, Is There a "Chinese School" of IR?, op cit, p. 10

رابعا:

إن البحث فيما تقدمه الثقافات المختلفة يقود بالضرورة إلى الكشف عن ملامح تعارض وتضارب بين رؤاها للعالم. يبدو نظام الـ Tiaxina شديد الاختلاف عن نظام وستفاليا، لكنه بالتأكيد كذلك شديد الاختلاف عن تصورات أخرى للعالم كالتصور الإسلامي عن العالم على سبيل المثال. لكن تعيد اليوم النظرية الصينية تقديم تصورها للعالم عن نظام دولي تحكمه هيراركية، ولكن يسوده الوئام والتناغم بين وحداته، يخلو طرحها المعاصر من نظام الجزية (tributary system) الذي سبق وأن أدارت به العالم من حولها في عصور مضت. وكذلك يخضع الغرب اليوم في مراجعاته ما بعد الوضعية نظام وستفاليا للنقد، فيتحرر تدريجيا من وهم أن نظام الدولة القومية هو الواقع الذي لا حقيقة بعده ويستكشف عوالم من الثقافات والحضارات والمخيلات السياسية داخل عالمنا المعاصر، فشتان بين عالم الدولة القومية التي تقوم على طمس الاختلافات والمرجعيات والخصوصيات الثقافية وبين عالم يبحث عن الثراء في التنوع والتعدد. يحمل انفتاح الثقافات على بعضها البعض إذن كثيرا من معاني التعارف والتدافع والتجديد الحضاري، معاني تتجاوز بكثير معاني الصدام والصراع المحتوم التي طالما روج لها الواقعيون في حقل العلاقات الدولية.

خامسا:

تنفتح بهذه الدراسة مساحة عريضة لمقارنة الإسهام النظري الصيني بإسهامات غير غربية أخرى في العلاقات الدولية في دراسات قادمة. يبرز في الذهن الإسهام النظري للمدرسة المصرية لمنظور حضاري إسلامي، تقدم المدرسة مراجعات معرفية وأنطولوجية ومنهاجية هامة في إطار مقارن في نظرية العلاقات الدولية من مرجعية غير غربية، إسلامية تحديدا. تبدو المقارنة هامة، فإذا كان كل من الإسهام النظري الصيني والإسهام النظري الحضاري الإسلامي ينتمي إلى فئة الإسهامات النظرية غير الغربية، إلا أن اختلاف المصادر بينهما والتفكير في أثره على كل منهما قد يسمح تدريجيا بالتمييز بين مدارس واتجاهات داخل نطاق ما يسمى استسهالا بالـ"تنظير غير الغربي".